رسالة
التوحيد

بسم الله الرحمن الرحيم

محفوظة جميع الحقوق

الطبعة الثالثة

١٤٤١ هـ - ٢٠١٩ م

رسالة التوحيد

تأليف الشيخ

عبد الرحمن بن يوسف عبد الصمد

(ت: ١٤٠٨) رحمه الله تعالى

تقريظ الشيخ

د. محمد هشام طاهري

حفظه الله تعالى

تقديم وتعليق

إبراهيم بن حميد الساجر

غفر الله له ولوالديه ولمشايخه وللمسلمين

الطبعة الثالثة

١٤٤١/٢٠١٩

إهداء

إلى ورثة الأنبياء، دعاة التوحيد، العلماء الربانيين..

الذين يصلحون ما أفسدت البدعة في الدين

إلى الذين يصلِّي الله تعالى عليهم، وملائكته، وحتى النملة في الجُحْر،

والحيتان في لُجَجِ البحر..

وإلى الدعاة المخلِصين المصلِحين مِمَّن يستغفرُ لهم مَن في السموات ومَن في الأرض أجمعين(١).

وإلى كلِّ مَن خافَ الله تعالى فيهم، فارعوى...

فكفَّ عن أكلِ لحومهم، واستباحةِ حِماهم، وعَلِمَ:

«إنَّ لحومَ العلماءِ مسمومةٌ، وعادةُ الله في هَتْكِ أستارِ مُنتَقِصيهم معلومةٌ، وإنَّ مَن أطلَقَ لِسانهُ في العلماءِ بالثَلبِ؛ ابتلاهُ اللهُ قبل موته بموتِ القلب»(٢).

﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣].

وإلى كل هؤلاء، نُقَدِّمُ هذه الرسالة:

«**رسالة التوحيد**».

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧].

---

(١) انظر الحديثين رقم (١٨٣٨) و (٩٢٩٧) من صحيح الجامع الصغير.

(٢) أورده الإمام النووي رحمه الله في كتاب «التبيان في آداب حملة القرآن» ص٢٠ عن الحافظ ابن عساكر رحمه الله.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الحميد، أحمده سبحانه المجيد، وأشهد أن لّا إله إلا الله وحده لا شريك له ولا نديد، وأشهد أنّ محمّداً عبده ورسوله جاء بالتّوحيد، صلَّى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلَّم إلى يوم المزيد، وبعدُ؛

فإنّ «التّوحيد» أهم ما يحتاج إليه الخلق؛ لأنّه يتعلّق بالعلم بالله تعالى، وبأسمائه الحسنى، وصفاته العليا، وأفعاله العظيمة، فمن عرف الله تعالى حقّ معرفته عرف التّوحيد الَّذي به نجاته، ومَن جَهِل معبودَه، ولم يعرف ربَّه وخالقه، وما له من حقوقٍ وخصائصَ ضلَّ وغوى.

فإذا كان الأمر كذلك فيجب على كلِّ مكلَّف معرفة ما يصح به إيمانه، ومعرفة ما يزيد به إيمانه، لا سيَّما الإيمان بالله تعالى الَّذي هو أسُّ وأصلُ أركان الإيمان، وبقيَّة الأركان تابع لهذا الأصل، ولا تقبل بدون هذا الركن.

ومفتاح الجنّة كلمة التّوحيد، وفضائل الأعمال مرتبطة بالتّوحيد، وقبول الأعمال مرتبط بالتّوحيد، وهذا كله يجعلنا نهتم بالتّوحيد، ونتعلمه على الوجه السّديد.

ولقد اطَّلعت على «**رسالة التّوحيد**» **الّتي كتبها شيخنا أبو يوسف عبد الرّحمن بن يوسف بن عبد الصّمد** -رحمه الله-؛ فألفيتها رسالة سهلة ماتعة، سلسلة نافعة، مختصرة غير مقعَّرَة، تامّة غير ناقصة، في باب التّوحيد بالله تعالى، وحريٌّ بطلبة العلم أن يقرؤوا هذه الرّسالة، وأن يتدارسوها بينهم، وأن يُدَرِّسوها.

ولقد زاد الرّسالة جمالاً عِناية أخينا الشَّيخ إبراهيم بن حميد أبي عبد الرّحمن السّاجر، وفّقه الله تعالى، ونفع بنا وبه؛ فقد أخرج الرّسالة في حِليةٍ جميلة، وتخريج مختصر لطيف، مع تقديم منيف؛ فشكر الله له، وبارك فيه؛ كما أسأل الله أن يغفر لشيخنا أبي يوسف وأن يجعله في علّيِّين، وجزاه الله خير ما جازى شيخاً عن تلامذته، وصَلَّى الله وسلَّم على نبيِّنا محمَّدٍ وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله ربّ العالمين.

كتبه/

د. محمَّد هشام طاهري

دولة الكويت المحروسة ٢٧/ ٣/ ١٤٤١هـ

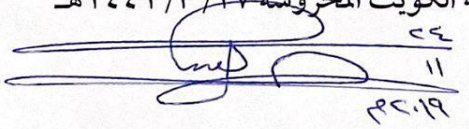

توطئةٌ
بينَ يدَي رِسالةِ التوحِيد

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين، وعلى آله وصحبه أجمعين؛ أما بعد:

فعن أم المؤمنين عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: جاءت عجوزٌ إلى النبيِّ ﷺ وهو عندي، فقال لها رسول الله ﷺ: «مَنْ أنتِ؟»، قالت: أنا جَثَّامةُ المُزَنِيَّةُ، قال: «بل أنتِ حَسَّانةُ المُزَنِيَّةُ كيف أنتُم؟ كيف حالكم؟ كيف كنتُم بعدنا؟»، قالت: بخيرٍ بأبي أنتَ وأمي يا رسول الله! فلما خرجتْ قلتُ: يا رسولَ الله، تُقبِلُ على هذه العجوزِ هذا الإقبالَ! فقال: «إنها كانت تأتينا زمنَ خديجةَ، وإنَّ حسنَ العهدِ من الإيمانِ»[1].

فإحياءً للسُّنة، وقمعًا للبدعة، وعملًا بهذا الحديث الشريف الـمُنيف، ولنصيحةٍ مباركةٍ ميمونةٍ مِن أخٍ فاضلٍ[2] مَضَتْ في مقدمة رسالة «**زُبدةُ الكلام، في تحريم حَلْقِ اللحيةِ في الإسلام**»[3]، ولأن حُسن العهد مِن الإيمان كما في قوله ﷺ الآنِف ذِكره؛ فإننا رأينا إعادة طبْع «**رسالة التوحيد**» مُنفصِلةً، بعد أنْ كانت

---

(١) رواه البيهقي في شعب الإيمان (٦/ ٣٠٢٢)، وصححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة (٢١٦).

(٢) هو أخونا الكريم فضيلة الشيخ «**حمد الأمير أبو صالح**» بارك الله فيه، ورضي عنه، ووفقه لكل عمل صالح.

(٣) التي طبعتها «**دار إيلاف الدولية للنشر والتوزيع**»، ١٤١٩هـ-١٩٩٨م.

مُدْرَجَةً ضِمن «**رسالة المقتصد**»؛ تسهيلًا وتيسيرًا لكل مَن رام نفعًا، أو طلَب علمًا؛ فإنها على وجازتها وبساطتها فيها مِن الذخائر السلفية ما فيها، ومَن ذاقَ عَرَفَ، أو «**مَن جَرَّبَ مِثل تجربتي، عَرَفَ مِثلَ معرفتي**»(١).

فقد كان دأْب الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ الدعوة إلى التوحيد في دروسه ومواعظه وطرائفه(٢)، ومجالسه، وشغله الشاغل فيها هو التوحيد، بل حياته كانت وَقْفًا لتحقيق التوحيد، ولستُ مبالِغًا إن قلتُ: إنَّ شأنه كله مع التوحيد، ويدور في فَلَك التوحيد. وما هذا إلا لعظيم أهمية التوحيد، ولأنه حقًّا -أي: التوحيد- هو المحور الأساسي لشريعة الإسلام، فالتوحيد قبل كل شيء، والتوحيد بعد كل شيء، والتوحيد فوق كل شيء، بل إنَّ الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ كان يَعتِب أشدَّ العَتَب -وقد تصفو المودة بالعتاب- على كل مَن: «**لا يفرِّق بين الشرك والتوحيد، ولا بين السُّنة والبدعة، ولا بين الحديث الصحيح والحديث الضعيف**».

---

(١) منسوب لأبي عبدالله محمد بن عمر الرازي كما في «**شرح العقيدة الطحاوية**»، ص٢٠٩.

(٢) ومنها هذه النادرة المعاصرة التي كثيرًا ما يَتندَّر بها لأهمية مَغزاها؛ وهي: أنَّ قومًا ركبوا سفينةً، فلما أضحت في عرض البحر؛ هاج البحر بهم وماج، وتلاطمتْ فيهم الأمواج، وأيقنوا الهلاك؛ وإذا بهم يجأرون مُستنجِدين بالأولياء «يا عبد القادر، يا جيلاني، يا باز، يا بدوي يا ساكن طنطا، يا دسوقي، يا رفاعي...»، وكان معهم شخص أنار الله قلبه بالتوحيد؛ فقال: يا ربِّ غَرِّق غَرِّق، نَسيوك اللهم نَسيوك! وتتمة القصة أنَّ السفينة غرقت، وأنجى الله عبده الذي ذكَّرَهُم بالتوحيد، ﴿وَكَذَٰلِكَ نُنجِي ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾ [سورة الأنبياء:٨٨].

فهو رَحِمَهُ اللَّهُ يرى -وحقًّا ما كان يَرى- أنَّ التوحيد مِن أَوْلى الأولويات، وكذا إخوانه السلفيون ومشايخه؛ كالألباني وابن باز وسواهما -رحم الله الجميع-؛ فلِسَان حالهم وقالهم دائمًا يُرَدِّدُ: «**يا أيها المسلمون، التوحيد أولًا وآخِرًا وقبل كل شيءٍ، لو كنتم يا قومَنا تعلمون**».

أَجَلْ؛ إنَّ التوحيد دَأْبُ السلف الصالح مِن قَبل ومِن بَعد، ودَيْدَنُهُم وهجيراهم، التوحيد، التوحيد، والوصية بالتوحيد، والأمثلة على ذلك كثيرة جدًّا، منها ما أوصى به عبدالقادر الجيلاني رَحِمَهُ اللَّهُ ابنَه قُبَيْل وفاته؛ حيث قال: «**عليكَ بتقوى الله عَزَّوَجَلَّ وطاعته، ولا تَخَفْ سِوى الله، ولا تَرْجُ أحدًا سِوى الله، وَكِلِ الحوائج كلَّها إلى الله عَزَّوَجَلَّ، واطلُبها جميعًا مِنه، ولا تَثِقْ بأحَدٍ سِوى الله عَزَّوَجَلَّ، ولا تعتمد إلَّا عليه سُبحانه، وعليك بالتوحيد، التوحيد، التوحيد، جِمَاعُ الكُلِّ التوحيد**»[1].

وما تكرار الوُصَاةِ بالتوحيد على هذا النحو؛ إلَّا لتقدِيرهم للتوحيد حقَّ قَدْرِه، وتعظيمهم في صدورهم أمره، وهذا أنْصَعُ بيانٍ، وأصدق برهانٍ، على عُمقِ عِلْمِ السلف، الذي أشارَ إليه الشيخ محمد بن عبدالوهاب رَحِمَهُ اللَّهُ في كِتاب «**التَّوحِيد**».

(١) انظر كتاب «سلسلة أعلام المسلمين- عبدالقادر الجيلاني»، للدكتور عبدالرزاق الكيلاني، ص٢٩٧.

وهذا تطبيق عملي لـهَدْيِهِ ﷺ، وكما في صحيح البخاري مِن حديث ابن عباس رضي الله عنهما لما بَعَثَ النبي ﷺ مُعاذًا إلى أهلِ اليمن؛ فقال له: «**إِنَّكَ تَقْدَمُ علَى قَوْمٍ مِن أَهْلِ الكِتَابِ، فَلْيَكُنْ أَوَّلَ ما تَدْعُوهُمْ إلى أنْ يُوَحِّدُوا الله...**»(١).

وإذا أَرَدْنَا عَودًا حميدًا لحياة العِزِّ والشَّرَف والأمجاد، والسِّيادة والرِّيادة، واستئناف الحياة الإسلامية الآمِنة في أرض الله، وسَرَّنا التخلي عن هذه الذلَّة الـمَقِيتة، والتَماوُتِ الـمُشِين، والتَبَعِية الـمُزرِية(٢)، ثُم كنا صادقين مع أنفسنا، ومُخلصين لديننا، وناصِحين لأمتنا؛ فإذا أَرَدْنَا كل ذلك فعلينا بالتوحيد، ومُحَارَبة الإشراك بكل صُوره، وجميع مَظاهِره، إيمانًا، واستبشارًا، واعتقادًا، وتصديقًا بقول مولانا ﷻ في مُحكَم التنزيل: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْـًٔا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [النور:٥٥].

---

(١) رواه البخاري (٧٣٧٢).

(٢) فهَوَيْنا من الصدارة إلى الحضيض، كأنَّا قد ذهلنا عن قول قائلنا:

ونحنُ أُناسٌ لا تَوَسُّطَ بيننا * * لنا الصدْرُ دونَ العالَمِينَ أو القبرُ

تهونُ علينا في المعالي نُفوسُنا * * ومَن يَخطُبِ الحسناءَ لَمْ يُغلِها المهرُ

فهذا كله مِن بركات التوحيد، أما الشِّرك فعلى النقيض مِن ذلك؛ لهذا حَذَّرَ النبي ﷺ مِنه أيَّما تحذير، وزَجَرَ مِن مُقارَبته مهما كَلَّفَ ذلك مِن ثَمنٍ؛ كما في قوله ﷺ: «**لا تُشرِك بالله شيئًا وإنْ قُطِّعْتَ وحُرِّقْتَ...**»(١).

هذا وإنَّ أُمَّتنا لـمَّا اعتَصَمت بحبل الله وتمسَّكت بالتوحيد تَمَسُّكَ المخُلِصين؛ غَدَتْ عزيزةً، قويةً، مَنيعةً، مَهيبةً، ثم إنها -للأسف- ذَلَّتْ، وضَعُفَتْ، واستكانَتْ شيئًا فشيئًا، لـمَّا تخلَّتْ عن حقيقة التوحيد شيئًا، فشيئًا.

إذًا؛ فالأمة في صحةٍ، وسلامةٍ، وعافيةٍ، ما كان التوحيدُ فيها سليمًا، صافيًا، نقيًّا، ولم تُخالِطه الشوَائِبُ، والأكْدَار، وأمَّا إذا ضَيَّعَتْ أمةُ التوحيدِ، التوحيدَ؛ فقد ضَيَّعتْ ذاتها، بل ضَيَّعتْ كلَّ شيءٍ، وخَسِرَتْ كلَّ شيءٍ، وهذا هو الخُسْرانُ المبين!

فهذه نتائجُ ظاهرةٍ مُتضافِرةٍ؛ فاظْفَرْ بها، وتَأمَّلْها، واقْرِرْ بها عينًا، هدانا الله وإياك إلى سواء السبيل.

وإنَّ مِن الجهل كُلَّ الجهل، والضلال كُلَّ الضلال، والرَّزِيَّة كُلَّ الرَّزِيَّة، تَنْحِيَةَ التوحيد عن الصدارة، وتهميشَ شأنِه، واعتبارَهُ مِن الأُمُور العادية، أو الثانوية، مُتَعَلِّلِين بأنَّ البَدَاءَةَ بِه تُنَفِّرُ الناسَ، وتُمَزِّقُ صَفَّهَم، وتُفَرِّقُ جماعتهم ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ [الكهف: ٥].

(١) رواه ابن حجر في التلخيص الحبير(٢/ ٧١٨)، أحمد (٢٢٠٧٥)، والطبراني (٢٠/ ٨٢) (١٥٦) وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير (٧٣٣٩).

لكنهم هكذا زَعَموا، ويا بئس ما زعموا، و«**بئسَ مطيَّةُ الرَّجلِ زعموا**» كما جاء عنه ﷺ(١)، ولله دَرُّ القائل:

والجهلُ داءٌ قاتِلٌ وشِفــاؤُهُ ❊❊ أمرانِ في التَركِيبِ مُتفِقانِ

نَصٌّ مِن القرآنِ أو مِن سُنَّةٍ ❊❊ وطبيبُ ذاكَ العالِمُ الرباني(٢)

وخِتامًا لهذه المقدمة؛ لا بُدَّ لي مِن كلِمَةٍ، وهي: إنَّ دَعوةَ التوحيد سَبِيلُها ليسَ سَهلًا مُمَهَّدًا، أو طريقًا سالكًا مُعَبَّدًا، فطريقُها يا صَاحِ وَعْرُ المُرتَقى، ومَسلَكُها شَائِكٌ وصَعْبٌ جدًّا، ولا بُدَّ دونَ الشَّهدِ مِن إبَرِ النحل! وهي على سَنَاها، وجَلاءِ معناها، وطِيبِ ثِمارِها وجَنَاها؛ فإنَّ أعداءَها كُثُرٌ.

فكلهم يَتَملمَلون مِن دعوةِ التوحيد، تَمَلْمُلَ السَّلِيم، أو كَمَنْ يَمشي على جَمْرِ الغَضَى؛ فهم يرونها عَشًى في عيونهم، وغُصةً في حُلوقهم، وشَجًا في صُدورِهم؛ لأنها تَقُضُّ عليهم مَضاجِعهم الراغدة، وتأتي على مكاسبهم الفاسدة، ومصالحهم البائدة، وآمالهم الواعدة؛ لذلك اسْتَدبَروها، وصَدُّوا عنها، وحَاربوها، ورَموها كلهم عَنْ قَوسٍ واحدةٍ مِصداقًا لقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ [الفرقان:٣١].

---

(١)أخرجه أبو داود (٤٩٧٢)، وأحمد (٢٣٤٥١)، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير، (٢٨٤٦).

(٢) النونية لابن قيم الجوزية رَحِمَهُ اللَّهُ.

بل إنَّ أعداء دعوة التوحيد في هذا الزمن اِفتَأتُوا عليها، وزوَّروا لها أسوأ وأشنع التُّهَم «إرهاب، إفساد، تَطَرُّف، رَجعِية، أُصُولِية، تَخَلُّف...»، هذا وقد نالَ وَرَثَةُ الأنبياء -دعاة التوحيد- العلماءُ مِن هذه القسمة الضِّيزى ما نالهم!

إذًا؛ فهذه سُنَّةُ الله تعالى في أنبيائِهِ وأوليائِهِ ومَنْ سَارَ على نهجهم واقْتَفَى أثرهم، ولقد عَنى ذلك وَرَقَةَ بنَ نَوْفَلٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[1] لـمَّا خَاطَبَ النبي ﷺ في القصة المشهورة بقوله: «**لَـمْ يَأتِ رَجُلٌ قَطُّ بِمِثْلِ ما جِئْتَ بِهِ إلا عُودِي**»[2].

لِذا فإنَّ الشيخَ رَحِمَهُ اللَّهُ لِتَقرِيرِ ما كان يَعتَقِدُ بِهِ ويَدعو إليه؛ كَتَبَ «**رسالة التوحيد**» هذه، التي نرجو أن تكون مِن العلم النافع في الحياة، ولا تَنقَطِع مَثُوبَتُه بعد الممات. فهي على وجازتها كثيرةُ الفائِدة جدًا - كيف لا وهي سلفية المبتدا والمنتهى - وجديرةٌ بأن يُعتَنى بها طباعةً، وتحقيقًا، وتخريجًا، وتوزيعًا، ودراسةً، وتدريسًا، لأنها تَجْلُو العَمَى والغِي بالبُرهَان.

---

(١) قال ﷺ: «**لا تسبوا ورقة بن نوفل؛ فإني رأيتُ له جنة أو جنتين**»،رواه السيوطي في الجامع الصغير (٩٧٧٥)، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير (٧٣٢٠).

(٢) رواه البخاري (٣).

وخِتامًا نَبْتَهِلُ إلى مولانا عَجَّلَ أنْ يَجعلَ هذه الرسالة خَالِصَةً لوجهِهِ الكريم، ونَرجُوهُ وحْدَهُ بِرَّها، وذُخْرَهَا، يومَ الدين ﴿يَوۡمَ لَا يَنفَعُ مَالٞ وَلَا بَنُونَ ٨٨ إِلَّا مَنۡ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلۡبٖ سَلِيمٖ ٨٩﴾ [الشعراء:٨٨، ٨٩]، ونسألُهُ سُبحانه أن يتقبلها، ويُجزِلَ أَجْرَ مُؤلفها، وينفعَ بها عَباد الله المسلمين، والله يجزي خيرًا كُلَّ مَن سَعى لتعميم النفع بها.

وصلَّى الله وسلم وبارَكَ على محمدٍ وعلى آلِهِ وصحبه أجمعين، ومَن تَبِعَهُم بإحسانٍ إلى يوم الدين، والحمد لله رب العالمين.

وَكَتَبَهُ وأمْلاه

راجِي عَفو رَبِّهِ ومولاه

إبراهيم بن حميد الساجر

«أبو عبدِ الرَّحمن».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

مقدمة المؤلف

إنَّ الحمدَ لله نَحمدُه ونَستَعِينُهُ ونَستَغفِرُهُ، ونَعوذُ بالله مِنْ شُرورِ أنفسنا ومِن سَيئات أعمالنا، مَنْ يَهدِهِ الله فلا مُضِل له، ومَنْ يُضلِل فلا هادي له، وأشهدُ أن لَّا إله إلا الله وحده لا شَريك له، وأشهدُ أنَّ مُحمدًا عبده ورسوله.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ١٠٢﴾ [آل عمران:١٠٢].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ١﴾ [النساء:١].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ٧١﴾ [الأحزاب:٧٠، ٧١].

أمَّا بَعد:

فإنَّ أصْدَقَ الحديث كتابُ الله، وخيرَ الهَدي هَديُ محمد ﷺ، وشرَّ الأمور مُحدثاتُها، وكُلَّ مُحدَثَة بِدعة، وكُلَّ بِدعةٍ ضَلالة، وكُلَّ ضَلالةٍ في النار؛ وبعد:

أيَّها إنسانٍ يقِفُ وقفةً هادئةً حالِمةً مُنصِفةً، مِلؤُها التفكر والاعتبار، يخلو فيها بينه وبين نفسه بعيدًا عن مشاغل الحياة ومتاعِبها وهمومِها، ويُلقي نظرةً فاحصة على جَنَبات الوجود في هذا الكون الفسيح المترامي الأطراف البديع الصنع، فيرى السماوات وما فيها مِن نجوم وشمس وقمر، وما بينها وبين الأرض مِن فضاءٍ وهواءٍ وسحابٍ مُسَخَّرٍ، ومن ليلٍ ونهارٍ وبرقٍ ورعدٍ وصواعقَ وزوابعَ وأعاصيرَ، ويرى الأرض وما فيها مِن بحارٍ وأنهارٍ وبحيراتٍ وجداولَ وعيونٍ ومستنقعاتٍ وجبالٍ وتِلالٍ ومرتفعاتٍ وسهولٍ ووديانَ وصحارٍ وقِفَارٍ وسُبُلٍ وممراتٍ ومضايقَ، ومِن زُروعٍ وثمارٍ وأشجارٍ وبساتينَ وأزهارٍ، ومِن معادنَ مختلفة، ويرى جميعَ ما عليها مِن مخلوقات، مِن إنسٍ وجِنٍّ وأنعامٍ وحيواناتٍ ووحوشٍ وطيورٍ ونملٍ ونحلٍ ودوابَّ وهوامَّ وحشراتٍ، ثم يُنعِم النظر في نظام ذلك الكون العجيب المتكامل الهيئات والصور، المتناسق الخَلْق، وفي نجومه المتناثرة السيَّارة منها وغيرِ السيَّارة، وفي سِراجِه الوَهاج المنير الذي يُرسِل الدِفء والنور على مَرِّ الدهور، وفي قَمَرِه الساطع السَّابِح الدائِب دون توقف، في الليل والنهار وكيف يتعاقبان دون تخلُّف ﴿لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ﴾ [يس:٤٠]، وفي الأنهار العظيمة التي تجري مُنذُ

أوجدها الله، وتَصُبُّ ملايين الملايين مِن الأطنان ما بين كُلِّ عَشِيةٍ وضُحاها، ولا تزال تَصُبُّ مِن العيون المتفجرة مِن جوف الأرض مُنْذُ بَدْءِ الخليقة وإلى يومنا هذا، لا تَغِيضُ ولا تَنْضُبْ، وفي مجموعة الكائنات الحية، على اختلاف أنواعها وأشكالها، وشتَّى صُوَرها وألوانها، واختلاف ألسنتها ولغاتها وأصواتها، وما أودع الله فيها مِن جمالٍ في الصورة، وإبداعٍ في الخلقة، وإِحْكامٍ في الصنع، وكيف تَعرِفُ مُسْتَقرها ومُسْتَودعها ثم تأوي إليه، وكيف تقوم بتنظيم شؤونها، وبِناءِ بيوتها وأكنانِها وأعشاشِها، وحَفْرِ أوكارِها، والكيفية التي تكتسِبُ بها معايشها، وتُحَصِّلُ فيها أقواتها، وكيف تُدافِعُ عن نفسِها وأولادها وجماعتها، وكيف تقوم بتربيهم وتَنشِئَتِهم وإصلاح شؤونهم!

أيَّما إنسانٍ يقِفُ تلك الوقفة؛ فسيدرك بفطرته أنَّ لهذا الكون خالقًا ومدبرًا وموجِدًا له مِن العدم.

ثم إذا أنعم النظر ثانيةً في جميع تلك المخلوقات العظيمة على اختلافها؛ فسيجد الإنسان نفسه بأنه مِن أكبرها عقلًا، وأعظمها تفكيرًا، وأحسنها خَلْقًا وخُلُقًا، وأجَلِّها قدْرًا، وأشدِّها حساسية وتدبيرًا للأمور، وأنه هو المُكَرَّم عليها جميعها.

ثم إذا أتبع النظرتين الأُولَيَيْن نظرةً ثالثةً؛ فسيجد أن جميعَ تلك المخلوقاتِ العظيمةِ الهائلةِ عُلْوِيِّها وسُفْلِيِّها مسَخَّرةً له.

وهذا هو شأن العظماء والعقلاء ذوي الفطرة السليمة، يُنعِمون النظر في أنفسهم، ويتفكرون فيما حولهم مِن مخلوقاتٍ؛ فيدركون تمام الإدراك أنَّ هذا الخَلْقَ لم يكن على سبيل الصُّدْفة أبدًا، وأنَّ الذي أوجده مِن العدم، أوجده عن إرادة ومشيئة وتقدير، وعندما يرون أنَّ هذا الخالق العظيم قد فَضَّلَهم وكرَّمهم على جميع مخلوقاته، ثم سخَّرَها جميعًا لهم؛ كان لزامًا عليهم أن يُوجِبوا على أنفسهم التعرف على هذا الخالق العظيم، والرب الكبير، والمُنعِم الكريم، ويَفرِضوا عليها ولاءَهُ وتعظيمه وطاعته، والاستسلام والخضوع لسلطانه وجبروته، مع كامل الذُل، وكامل المحبة، وكامل الرِّضى، ويُلزِموها حمده وشكره والثناء عليه وتعظيمه؛ لتكريمه لهم، ولتفضيله إياهم على سائر مخلوقاته، ولِمَا أولاهم مِن النعم التي لا تُعد ولا تُحصى.

وهذه المذكورات تُسَمى بـ«العبادة»، التي هي همزة الوصل بين الخلق وخالقهم، والعُروة الوثقى بين العباد وربهم، ولَـمَّا كانت العبادة يَعُوزُها النظام، والإنسان بطبيعته -على ما أولاه الله مِن مواهب وآتاهُ من نِعم- عاجزٌ كُلَّ العجز عن وَضْعِ هذا النظام الذي يربطه بِرَبه ﷻ؛ لأن الله غَيْبٌ؛ لذلك اقتضت حكمة الله أن يُرْسِلَ الرسل، ويُنْزِلَ الكتب تِبيانًا لكل شيء وهُدًى ورحمةً للعالمين.

ومعلومٌ أن مفتاح الدعوات الإلهية؛ هي مَعرفة الله ﷻ بأسمائه الحُسنى، وصِفاته العُلى، وأفعاله المجيدة، التي هي خُلاصة دعوة الأنبياء، ولَـمَّا كانت هذه المعرفة مُتَضَمِّنَةً كَمال التوحيد؛ الذي هو قُطْبُ رَحَى الرِسالات، والحق الذي قامت به الأرض والسماوات، والأساس الذي بُنِيَت عليه دعوة الانبياء؛ أحببتُ أنْ أبدأ بِهِ؛ فأقول: وبالله التوفيق وعليه التكلان.

التوحيد

مدلوله اللُّغوي:

تقول العرب: وَحَّدَهُ توحيدًا، جَعَلَه واحدًا، والوِحْدَة هي الانفِراد بالشيء، وَوَحَّدَ الشيء توحيدًا جَعَلَهُ واحِدًا، واعْتَقَدَ أَنَّهُ وَاحِدٌ. وخُلاصة البحث أنَّ مادةَ (وَحَّدَ) تَدُورُ حَوْلَ انفِراد الشيء بذاتِه، أو بصِفاته، أو بأفعاله، وعدم وجود نَظِيرٍ له فيما هو واحِدٌ فيه.

أصل التوحيد:

هو اعتقادٌ بأنَّ الله واحِدٌ في ذاته، واحِدٌ في صفاته، واحِدٌ في أسمائه، واحِدٌ في أفعاله، وجَعْلِهِ قولًا وعملًا واعتقادًا واحدًا، وواحدًا في التوجُّه إليه، بألَّا يُعبَد غيره، ولا يُدعَى سواه، ولا يُخشَى ويُتَّقَى إلا إيَّاه، ولا يُتَوَكَّل إلا عليه، وأنَّه هو وَحْدَهُ المرجع والمصدر لكل كائن، ومُنتَهَى كل مقصد، وألَّا تُتخذ الملائكة أو النبيون أو الصالحون أو الأولياء أو المشايخ أو غيرهم أربابًا من دون الله، وألَّا يدعوهم أحدٌ في الشدائد والنائبات، وألَّا يُتَّخَذُوا وسائط بين العباد وبين الله ﷻ، مع العلم والاعتقاد أنهم جميعًا عبيد، وليس لهم مِن الأمر شيء، ولا يملكون مِن قِطْمِير.

أقسام التوحيد

يُقَسَّمُ التوحيد إلى ثلاثة أقسامٍ كُلِّية:

١) توحيد الألوهية.

٢) توحيد الربوبيِّة المتضمن لـ«توحيد الحُكم».

٣) توحيد الأسماء والصفات.

وجميع هذه الأقسام موجودة في سورة «الفاتحة».

۞ أولاً: توحيد الألوهية:

تعريفه: هو إفراد الله بالعبادة، وإخلاص الدِّين له وحده، وتوحيده ﷻ بأفعال العباد المتعبَّدين بها شرعًا.

ويُسَمى توحيد العبادة، أو توحيد القَصْد والطَلَبْ.

وهو منسوب إلى الإله؛ يقال: أَلِهَ يَأْلَهُ إلاهةً وأُلُوهةً وأُلُوهيةً، بمعنى عَبَد عبادةً، والإلهُ هو المَعْبُودُ، ولَمَّا لم يكن في الوجود مَن يُعبد بحق إلا الله وحده، لا شريك له، وجب علينا أن نفرده بالعبادة، وألَّا نصرف شيئًا منها لغيره، وجميع الأعمال التي تعبَّدنا الله بها شرعًا؛ هي حق له وحده، ومقصورة عليه، لا يَشْرَكه فيها أحد من مخلوقاته، لا مَلَك مقرب، ولا نبي مرسل، وهذا هو تحقيق قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة:٥].

ومعلومٌ في لغة العرب أنَّ المعمول إذا تقدم على العامل؛ أفادَ الحَصر المطلق، وبناءً على ذلك؛ فإن العبادات جميعها -على اختلاف أنواعها- مقصورةٌ على الله وحده لا شريك له؛ لذلك قال تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف:١١٠].

فقِوَام هذا التوحيد: ألَّا نعبد إلا الله وحده لا شريك له، وألَّا نعبده إلا بما شرع؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف:١١٠]، مع الاعتقاد الجازم، بأن جميع العبادات حق ثابت له وحده لا شريك له، ولا يجوز أن يُصرف شيء منها لغيره البتَّةَ، ومَن يَصرف شيئًا منها لغيره، يكنْ مشركًا كافرًا ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [المؤمنون:١١٧]، ومعنى «**يَدْعُ**»: يَتَعَبَّدُ؛ قال رسول الله ﷺ: «**الدُّعَاءُ هُوَ العِبَادَة**»(١).

العبـادة:

❖ **تَعرِيفُها**: اسمٌ جامِعٌ لِكُل ما يُحِبه اللهُ ويَرضاه مِن الأقوالِ، والأفعالِ الظَّاهِرة والباطِنة، التي تَعَبَّدَ اللهُ بها عِبادَه، وجِماعُها ألَّا نَعبُدَ إلَّا اللهَ وَحْدَهُ لا شَريكَ له، وألَّا نَعبُدَهُ إلَّا بِما شَرَعَ، مَع تَمامِ الذُّلِّ، والخضوع، والاستسلام، ومع كَمال المحَبَّة، والرِّضَى، والقبول.

الإِخْلاصُ وتعريفه: إن ركن العبادات الأعظم هو «الإخلاص».

والإخْلاصُ فِي لُغَةِ العرب: «هو تنقية الشيء وتهذيبه وتصفيته وتخليصه من كل شائبة».

---

(١) أخرجه أبو داود (١٤٧٩)، والترمذي (٢٩٦٩)، وابن ماجة (٣٨٢٨) وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير (٣٤٠٧).

وفي الشَّرع: «أن يَقصِد العبد، بكل أقواله، وأفعاله، وَجْهَ الله والدارَ الآخرة، وعدم الالتفات إلى المَغْنَمِ، أو الجاه، أو المنصب، أو اللقب، أو ليُرى مَقامه، أو ليُقال، مع تَجَنُّب الرياء؛ لأنه يُحبِط الأعمال ويُفسِدها، كما يُفسِد الخل العسل، وهو -أي الإخلاص- بمثابة الأساس لجميع العبادات».

فَكُلُّ عِبادة شَرَعَها الله، قد بُنِيَت على الإخْلاص؛ تكون مَقبولةً، وتَنْفَعُ صاحِبها، عِندما يَلقى اللهَ يَومَ القِيامة؛ ولذلك قالوا: العِبادات جَميعُها على اختِلافها لا تكون مَقْبولةً إلَّا بشرطين اثنين لا ثالث لهما:

(١) أنْ تكون خالصةً لله وَحْدَهُ لا شريك له، ولا يُقْصَدُ بِها إلَّا وَجْهه، والدار الآخرة.

(٢) أنْ تكون صوابًا؛ أي: مَشروعة، وتُعْمَلُ وَفْقَ ما أمر الله به، ورسوله ﷺ من غير زيادة أو نقص، وعلى مُقتضَى نصوص الكتاب والسُّنة، وعلى النحو الذي فعله النبي ﷺ والخلفاء والصحابة -رضوان الله عليهم أجمعين-؛ قال تعالى: ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف:٣].

وقال ﷺ: «**صَلُّوا كَمَا رَأَيتُمُونِي أُصَلِّي**»(١).

وقال ﷺ: «**خُذُوا عَنِّي خُذُوا عَنِّي...**»(٢).

(١) رواه البخاري (٦٣١)، ومسلم (٦٧٤).

(٢)أخرجه مسلم (١٦٩٠)، وأبو داود (٤٤١٥)، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير (٣٢١٥).

وقال ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «اتَّبِعوا ولا تبتدِعوا، فقد كُفِيتُم».

وقال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «كُلُّ عِبادةٍ لَمْ يَتَعَبَّد بِها النبي ﷺ وصَحابته؛ فلا تَعَبَّدُوها»اهـ.

فإذا اختل شرطٌ مِن هذين الشرطين المذكورين؛ لم تصح العبادة ولم تُقبل، ويَنطبِقُ على صاحبها قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ۝٢ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ۝٣ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً﴾ [الغاشية:٢-٤].

وهنا نلفت النَظَر إلى أنَّه إذا فُقِد شرطُ الإخلاص؛ كان العملُ رياءً، ومعلوم أنَّ الرياء شِركٌ، والشِّرك مُحبِط للعمل، ولا يغفره الله تعالى. وإذا فُقِدَ شرط المتابعة لفعل النبي ﷺ وصَحابته الكِرام؛ كانت الأعمال بِدَعًا ومُحدثات، وقد نَهى النبي ﷺ عنها بقوله: «**إِيَّاكُمْ ومُحدَثاتِ الأمورِ، فإنَّ كُلَّ مُحدَثَةٍ بِدعَةٌ، وكلَّ بدعةٍ ضلالةٌ، وكلَّ ضلالَةٍ في النَّارِ**»(١).

ومعلوم أيضًا أنَّ البِدع قرينة الشِّرك لا يغفِرُها الله تعالى؛ قال رسول الله ﷺ: «**إنَّ اللهَ احْتَجَزَ التَّوْبَةَ عَنْ كُلِّ صاحِبِ بِدْعَةٍ**»(٢)، وفي رواية أخرى عنه ﷺ: «**إنَّ الله حجبَ التَّوبةَ عن كلِّ صاحبِ بدعةٍ حتَّى يدعَ بدعتَه**»(٣).

---

(١) صحيح سنن النسائي، حديث رقم (١٤٨٧).

(٢) صحيح الجامع الصغير، حديث رقم (١٦٩٩).

(٣) صحيح الترغيب والترهيب، حديث رقم (٥٤).

❖ **كماله وإتمامه**: ولا يَتِمُّ مَقام هذا التوحيد -أي: توحيد الألوهية- ويَصِلُ إلى درجةِ الكمال والتمام؛ إلَّا بأصلين اثنين عظيمين:

✓ الأول: بِصَرْفِ العبادة الخالصة والصواب لله وحده لا شريك له.

✓ الثاني: بِطَرْحِ الشِّرك بجميع أنواعه وأشكاله.

وهذان الأصلان هُما أصل الدين وقاعدته، وهما قُطْبُ الرَّحى، وعليهما مَدَارُهُ، وهُما أساس دعوة الرسل؛ قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل:٣٦]، وقال سبحانه: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ [النساء:٣٦]، وقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الزمر:٦٥].

❖ **تحقيقه**: ولا يَتَحَقَّقُ هذا التوحيد ويَتِم ويَكمُل إلا بمعرِفة مَعنى العِبادة في اللغةِ، والشَّرْع، وبمعرِفة جميعِ أنواع العِبادات التي تعبَّدَنا الله سبحانه بها على اختلاف أنواعِها، مع العلم بكيْفِها، وكمِّها كما وَرَدَتْ، دُون زِيادة أو نُقصَانٍ، مع العِلم الجازم بأنَّها جَميعًا حَقٌّ ثابتٌ لله وحده؛ قال تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف:١١٠].

ومِن مُستلزمات هذا التوحيد معرِفة نَقِيضِه؛ وهو الشِّركُ؛ لنتجَنَّبَه ونَبتَعِدَ عنه، لِيَسْلَمَ لنا توحيدنا.

وإتمامًا للفائدة؛ إليك أخي المسلم تعريفًا شامِلًا لمعنى العِبادة وأنواعها (القَلْبِية، والعَمَلِية، والقَوْلِية، والمالية) وإلَيْكها جميعها:

- **أنواع العبادات:**

١- العبادات القلبية: أَهَمُّها وأجَلُّها وأعظَمُها شأنًا؛ الإيمانُ بالله، ورسولهِ ﷺ، ومحبتهِ، ومحبةِ رسولهِ ﷺ أكثر مِمن سِواهما، ومَحبة أوليائه المؤمنين، والحُبُّ في الله، والبُغض في الله، والغَضَبُ عِند انتهاك حُرْمَة الله، وتَعظِيم شَعائِر الله، والخَوف منه، والرَجَاء، والخُشُوع، والخَشية، والإنابة، والإخْلاص، والإخْبات، والتَوَكُّل، والنيَّة الصالحة، والصَّبر، والرِّضَى، والذُّل، والخُضُوع، والاستِسلام، والانقِياد، وغير ذلك.

٢- العبادات العَمَلية: أَهَمُّها؛ الصَّلاة، والصِّيام، والحج، والعُمرة، والجِهاد في سبيل الله، وجِهاد النفس، والهِجرة، والرِّحلة في طلب العِلْم، وزِيارة المسَاجِد الثَّلاثة، وزِيارة مَسجِد قباء، وزِيارة الإخوان في الله، وزِيارة المرضى، وإجَابة الدَّعوة، وحُضُور الجَنائِز، وحِلَق الذِّكر، وحُضُور الجماعة، وحَفْر القبور، وتَغْسِيل الأموات، وتَكْفِينهم، ودَفْنهُم، والصَّلاة عليهم، وأداء الأمانة والمُحافَظة عليها،

وصِلَة الرَّحِم، وإتقان العمل، وإِمَاطَة الأذى عن الطريق، وبِرّ الوالدين، وإكرَام الضَّيف، وإكرَام الجَار، وإكرَام ذِي الشَّيبَة المُسلِم، وكَفَالة اليتيم، ومُلاطَفَته ومُواسَاته، والمحافَظَة على أمواله وتَنْمِيَتها، والبَشَاشَة والابتسام بِوَجْهِ الإخوان، وبِنَاء المساجِد والأرْبِطَة والمَبَرَّاتِ الخيرية، وغير ذلك.

٣- العبادات القَوْلية: أَهَمُّها؛ الذِّكْر؛ كقِراءةِ القُرآن، والتَسْبِيح، والتَحمِيد، والتَهلِيل، والتَكبِير، والدُّعاءِ بنوعيهِ: (أ- دعاء السؤال والطلب، ب- ودعاء الثناء والشكر)، والصلاة على النبي ﷺ، والكلمة الطيبة، والدعوة إلى الله، وصِدْق الحديث، وتعليم الناس أمر دينهم، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والتواصي بالحق، والتواصي بالصبر، والنصح لله ولكتابه ولرسوله ﷺ ولأئمة المسلمين وعامتهم، والاستعاذة، والاستغاثة، والاستعانة، والحلف بأسماء الله الحسنى وصفاته العُلى، والفأل، والسلام ورده، وغير ذلك.

٤- العبادات المالية: أَهَمُّها؛ الزَّكاة، والصَدَقة، والذَّبح، والنَّذر، وإطعام الطَّعام، وكُلْفَة بِناء المساجِد والمدارِس والمعاهِد الدينية، والنَّفَقَة على مُعَلِّمي الناس الخير، والنَّفَقَة على العِيال والأيتام، وتَجهِيز المجاهِدين والمرابِطين في سَبِيل الله، وشِراء الأسلِحة والعَتاد للجيش، وإِعتاق الرِّقاب، وإعانَة المُكاتبِ، وفَك العاني، وقَضَاء الدَّين، وبِناء البيوت والأربِطة لأبناء السَّبِيل، وحَفْرُ آبارِ المياه، والهَدايا، وغير ذلك.

وجَميعُ هذه العبادات حَقٌّ ثابِتٌ لله وَحْدَهُ لا شَرِيكَ له، ولا يَشْرَكه فيها أحدٌ، لا مَلَك مُقرَّب، ولا نَبِيّ مُرْسَل؛ قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام:١٦٢، ١٦٣]، فمن صَرَفَ منها شيئًا لغير الله؛ كأنْ (يدعو غيرَ الله، أو يستعين بغيره، أو يَنْذر لغيره، أو يُحَسِّن صَلاتَه لغيره، أو يَحلِف بغيره، أو يَذبَحَ لغيره)؛ يكونُ بذلك مُشرِكًا كافرًا -أعاذَنا اللهُ وإياكم مِن ذلك-[1].

(١) ويجْمُلُ بالقارئ الكريم أنْ يَعلَمَ أنَّ الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ مُتبِعٌ للسلف في التفريق بين كُفرِ العمل وكُفرِ الاعتقاد، وكُفرٍ يَنقُل عن المِلة وكُفرٍ لا يَنقُل عن الملة، وبين التَّكفِير المطلق وتكفِير المُعَيَّن، وكذا يُفَرِّقُ بين نِفاق القلب ونِفاق العمل. ويرى أنَّ الشِّرك مِنه أكبر ومِنه أصغر، وأنَّ مَن يَستحِلُّ الذنب ليس كمَن لا يستحله. كل هذا وَفْق الأصول والضوابط التي قررها جهابذة علماء السلف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

قلتُ هذا: لِئلَّا يتوهم أحدٌ في الشيخ غير هذا، والله أعلم.

۞ ثانيًا: توحيد الربوبية المتضمن لـ«توحيد الحُكْم»:

الرَّبُّ في لُغَةِ العَرَب: مُشتقٌّ مِن التَّربِية، يُقال رَبَّاهُ رَبُّهُ ورَبَّبَهُ؛ أي: أنشأه حالًا فحالًا، وطَورًا فطَورًا إلى حَدِّ التَّمام.

والرَّبُّ أيضًا في اللُّغَة يُطلق على: السَّيد، والمالِك، والمُدَبِّر، والمُرَبِّي، والقَيِّم، والمُنعِم، بِشَرط أنْ لا يُضَاف؛ كأنْ يَقول: رَبُّ البيتِ، رَبُّ الدَّابة، رَبُّ العَمَل، ونَحوِه.

وكلمة الرُّبُوبِية تَدُلُّ عَلى: التَّربِية، والتَّنشِئَة، والإِنمَاء، والتَّهيئة، والتَّعَهُد، والرِّعاية، والكَفالة، والاستِصلاح، والجَمْع، والحَشْد، والعَلاء، والسِّيادة، والرِّئاسَة، وتَنفِيذِ الأمر، والتَّصَرف التَّام مع التَّمَلُّكِ التَّام. وجميع هذه المعاني محصورةٌ في معنى الرَّب، فمَن كانت هذه صِفاته؛ فهو الحاكِم المُطلَق، وله الحاكِمية المُطلَقة على العالَمين بلا مُنازِع؛ لقوله تعالى: ﴿إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [يوسف:٤٠]، وقال سبحانه: ﴿فَٱلۡحُكۡمُ لِلَّهِ ٱلۡعَلِيِّ ٱلۡكَبِيرِ﴾ [غافر:١٢]، وقال سبحانه: ﴿أَلَا لَهُ ٱلۡحُكۡمُ وَهُوَ أَسۡرَعُ ٱلۡحَٰسِبِينَ﴾ [الأنعام:٦٢]، وقال سبحانه: ﴿فَٱصۡبِرُواْ حَتَّىٰ يَحۡكُمَ ٱللَّهُ بَيۡنَنَاۚ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ﴾ [الأعراف:٨٧].

❖ **تعريفه:**

توحيد الربوبية هو: إفرادُ الله تعالى بأفعال نفسه مِن خَلْقٍ، ورَزقٍ، وإحياءٍ، وإماتةٍ، وحَشْرٍ، ونَشْرٍ، وتَسخِيرٍ، وإيجادٍ، وتدبيرٍ للكون، وتَصريفٍ للأمور، وغيرِ ذلك مِن الأفعال، التي خَصَّ الله بها ذاتَه سبحانه.

❖ **حقيقته:**

وحقيقة هذا التوحيد هو: الاعتقادُ الجازم الأكِيد بأنَّ اللهَ تعالى هو الخالِق لجميع الكائنات وَحْدَهُ، والرزَّاق لها وَحْدَهُ، والمدبِّر لشؤونها وَحْدَهُ، والمُتَصرَّفُ بها وَحْدَهُ، والمالك لها وَحْدَهُ، والوارِثُ لها وَحْدَهُ، لا يَشْرَكه في مُلكِه أحدٌ مِن خلقه، لا مَلَكٌ مُقَرَّب، ولا نبيٌّ مُرسَل، ويُصَرِّفُها كيف يشاء على مُقتضى إرادته ومشيئته وتقديره وَحْدَهُ، ويَهَبُ ما يشاء لمن يشاء وَحْدَهُ، ويَصْرِفُ ما شاءَ عَمَّن يشاء وَحْدَهُ، والحاكمية المطلقة على عباده له وَحْدَهُ لا رادَّ لحُكمِه، وأنَّه لا يَحدُث في مُلكه إلا ما يريد، ما شاء كان، وما لَمْ يشأ لَمْ يكن، وهو خالق الكائنات، ومُوجِدُها مِن العدم وَحْدَهُ، وهو المرجِع لجميعها، وجميعها صائرةٌ إليه وَحْدَهُ ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [غافر:١٦]، وهو المالك لها وَحْدَهُ ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الملك:١]، ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران:٢٦].

فمن كانت هذه صفاته؛ فلا بُدَّ أن تكون له الحاكمية المطلَقة على مخلوقاته، وهو معبودهم لا معبود لهم سواه.

❖ التلازُم بين توحيد الألوهية والربوبية:

فَمَن عَرَفَ أنَّ الله هو الخالقُ، البارئُ، المصوِّرُ، المالِكُ، المُتَصرِّفُ، الرازِقُ، المُحيي، المُميتُ، وأنَّه يُعطي، ويَمنعُ، ويَصِلُ، ويَقْطَعُ، ويَضُرُّ، وينفعُ، ورَبُّ كل شيءٍ ومَلِيكُهُ، وأنَّهُ القائِمُ على أُمُور العِباد، والمُربي لهم بِنِعَمِهِ التي لا تُعَدُّ ولا تُحصى، وما مِن نِعمةٍ في الأرض ولا في السماء إلا هو مَصدرُها؛ فمَن عَرَف كل ذلك لَزِمَهُ أنْ يعتقد أنَّه هو المعبود وَحْدَهُ، لا مَعبُودَ للعالَمين سِواه، وأنَّ جَميع العبادات على اختلافِها هي حقٌّ له وَحْدَهُ، لا يَشْرَكه بِها أحدٌ مِن خَلقه، والخَلق كلهم عَبيده، وهو ربهم، ومالِكهم، وسَيِّدهم، وهذا هو التلازُم الحقيقي بين التوحيدين؛ لأنهما توأمان لا ينفصِمان، ولا ينفع الإيمان بأحدهما دون الآخر، بل لا بُدَّ مِن الجمع بينهما، فالذي يَعبُد الله تعالى حَقَّ العِبادة، ولَمْ يُشرِك به شيئًا، وكانت عِبادته خالصةً لوَجْهِ الله وصوابًا، واعتقد أنَّ لغير الله تأثيرًا مع الله في شيءٍ مِن مُلكِه، أو له القُدرة في تَصرِيف ما لا يقدر عليه إلَّا الله، كالإحياءِ، والإماتةِ، والرَزقِ، ونحوِ ذلك، وأنَّه يملِك الضُرَّ، والنَفع، ويكشِفُ السوء؛ فهذا قد كَفَرَ، وأشرك، وحَبِطَ عمله.

كذلك مَن اعتقد أنَّ الله هو رَبُّ كل شيءٍ ومَليكه، وأنَّه الخالِقُ، الرازِقُ، المُحيي، المُمِيت، والذي يَضُرُّ وينفعُ... إلخ، وصَرَفَ شيئًا مِن العبادة إلى غيره، ولو بشيءٍ يسيرٍ، أو لَمْ يَستسلم لأحكامه؛ فهو أيضًا قد كَفَرَ وأشْرَكَ، حلال الدم والمال، ولا يَقبلُ الله مِنه صرفًا ولا عَدلًا، ما لَمْ يُحقِّق التوحيدين على أكمل وجهٍ.

فإذا وحَّدَ العبدُ ربَّهُ بأفعاله سبحانه، واعتقد أنَّه واحِدٌ في جميعها، وأنَّ أَزِمَّةَ الأمور كُلَّها بيديه، ووحَّدَهُ كذلك بجميع الأفعال التي تعبَّدنا بها شرعًا، واعتقدَ أنَّهُ سُبحانه هو المُستَحِقُّ لها وَحْدَهُ، لا يَستَحِقُّها سِواهُ؛ يكونُ بذلك قد حَقَّقَ التوحيدين معًا، ويبقى عليه تَحقِيقُ توحيد الأسماء والصفات. واللهُ الموفِّقُ للصَّواب.

۞ ثالثًا: توحيد الأسماء والصفات:

إنَّهُ لَـمِنَ المعلوم أنَّ الغَيب لا يُدْرَكُ بالبَصَر، ولا يُمكِن للعقل البَشَري مَهما سَمَا إدرَاك ذلكَ على الحقيقة، لأيٍّ مِن شُؤون الغَيب؛ لِذلِك اقْتَضَتْ حِكمَة الله أنْ يُرسِلَ الرُّسُلَ بالهُدى ودِين الحقِّ، ويُطلِعَهُم على بعض الغَيب، ويُعَرِّفَهُم الكثير مِن أسمائِه وصِفاتِه العُلى، فجاؤونا بِهذا الهُدى كامِلًا غير مَنقُوص، وعرَّفونا بأسمائِه وصِفاتِه على أَتَمِّ وَجهٍ، ودلُّونا على ما يَليق بِهِ وعلى ما لا يَليقُ بِهِ سبحانه، ولَمْ يَبْقَ للعقل البشري مِن وظيفةٍ سِوى أنْ يَعقِلَ عَنِ الله تعالى تِلك النصوص الوارِدة، في بيانِ أسمائِه الحُسنى وصِفاتِه العُلى وأفعالِه المجيدة، ويَتَدَبَّرَها، ويَتَفَهَّمَ ما تَضَمَّنَتْهُ تِلك النُصوص مِن معانٍ سامِية لتِلك الأسماء والصِّفات والأفعال على مُقتَضى ما أرادَهُ الله مِنَّا، حَسْبَ ما تَقتَضِيه الشَّرِيعة الغَرَّاء، وعلى ما تَقْتَضِيهِ لُغَة العَرَب، وعلى النَّهْجِ القَويم، حَسْبَ ما فَهِمَتْهُ القرون الثلاثة الأُولى المفضَّلَة، مع إثبات ما أَثْبَتَهُ اللهُ لنفسِهِ، وأثْبَتَهُ له رَسُولُه ﷺ مِن أسماءٍ وصِفاتٍ وأفعالٍ، مع الإيمان المطلق بجميعها نَفيًا وإثباتًا، مِن غير تَشبيهٍ، أو تَمثيلٍ، أو تَعطيلٍ، أو تَأويلٍ يُخِلُّ بالمعنى المُراد، وبلا تكييف.

❖ **مقاصد هذا التوحيد:**

القصد مِن هذا التوحيد -والله أعلم- أمورٌ ثلاثة:

(١) تَنزِيهُ الله تعالى عَنْ مُشابَهةِ صِفاتِ المخلوقين.

(٢) الإيمانُ بِما وَصَفَ اللهُ بِهِ نَفْسَهُ، أو وَصَفَهُ بِهِ رَسُولُهُ ﷺ، مع إثباتِها، وفَهْمِها، كما فَهِمَها السَّلَفُ الصَّالِح.

(٣) قَطْعُ الأمَل تمامًا مِن مُحاوَلة إدراك حقائِقِها، واليأس الكليِّ مِن مَعرِفة كيفياتِها.

وهذه الأمور الثلاثة؛ فيها التَّحقِيقُ الكامِلُ والشَّامِلُ لمضمُون قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١]؛ ففي هذه الآية الكريمة تَوضيحٌ بَيِّنٌ للحقيقة الكامِنة في جميع آياتِ الأسماء والصِّفات، وتِلك الحقيقة هي تَنزيهُهُ سبحانه عَن مُشابَهة الحوادِث، واعتقاد أنَّهُ ليس كمثلِهِ شيءٌ في جميعِها، مع إثباتِ جَميعِ ما وَرَدَ في الكتابِ والسُّنة مِن أسماءٍ وصِفاتٍ، مع الكَفِّ عَنْ البحثِ في حقائِقِها وكيفياتِها، واختارَ اللهُ سبحانه -والله أعلم- صِفَتَي السَّمعِ والبَصرِ دون غيرِهما مِن الصِّفات؛ لاشتِراك جميع الأحياء بالاتصافِ بهما، وليُعْلِمَ عِبادَه أنَّ مُشارَكتَهُم له في السَّمْعِ والبَصَر لا تَقتَضِي المُماثَلَة، ولا يَلْزَمُ مِنها مُشابَهة الخالِق بالمخلوق، فاللهُ ﷻ وَصَفَ نفسهُ بالسميع البصير، وَوَصَفَ الإنسان بأنَّه سميع بصير، ومع هذا كُلِّهِ لا يَقتضي ذلك المُماثَلَةَ والمُشابهة. [مُقتَبَسٌ مِن أضواء البيان، وما أجْمَلَ ما قاله الشيخ الأمين الشنقيطي في مُحاضرة: الأسماء والصِّفات].

ووَصف نفسه سبحانه بالسمع والبصر في غير ما آية من كتابه؛ فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ [الحج:٧٥]، وقال سبحانه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١]، وَوَصَفَ بعضَ الحوادِثِ بالسَّمعِ والبَصَرِ كما قال تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ [الإنسان:٢]، وقال سبحانه: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلْيَوْمَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [مريم:٣٨].

ونحنُ لا نَشُكُّ أنَّ ما في القرآن حَقٌّ، فَلِلَّهِ تعالى سَمعٌ وبَصرٌ حَقِيقِيَّان لائِقانِ بجلالِه وكمالِه سبحانه، كما أنَّ للمخلوق سَمعًا وبصرًا حقيقيَّين مُناسِبَين لحالِه في فَقْرِهِ وفَنائِه وعَجْزِه، وبين سَمْعِ وبَصَرِ الخالِق، وسَمْعِ وبَصَرِ المخلوق كمَثَل ما بين ذاتِ الخالِق وذات المخلوق مِن الأفعال المُشتركة مِنها وغير المُشتركَة، الفرقُ بينهما وبين أسماءِ وصِفات المخلوقين؛ كالفرق بين ذات الخالِق وذواتِ المخلوقِين، ولقد زلَّت أقلامُ الكثيرين مِن المتأخرين في هذا التوحيد، وأَدْخَلَ عُلَمَاءُ الكَلَامِ وَالزَّنَادِقةُ والفلاسِفةُ والباطِنيون شُبهاتٍ وضلالاتٍ على هذا التوحيد، خاصة في صِفات الأفعال والذَّاتِ؛ كالوَجْه، والسَّاق، والأصابع، والمعِيَّة، والاستِواء، والنُّزول، والمَجِيء، والرِّضا، والغَضَب، والسَّخَط، والمَكر، والكَيد، والخِداع، والاستِهزاء، والمَحَبَّة، والضَّحِك، والتَّعَجُّب، ونحو ذلك، وقد ضَلَّ بِتِلكَ الشُّبَهِ والتأويلات الكثيرون مِن هذه الأُمَّة وإلى يومِنا هذا؛ فلذلِكَ كانَ لِزامًا عَلينا أن

نَعرِضَ مُعتَقدَ أهلِ الزَّيغ والضَّلالِ مِن المُشَبِّهة والمُعَطِّلة، وكذلِك مُعتَقَد المؤَوِّلة، والواقِفة، والمُفَوِّضَة، مع بيان ما جاؤوا به مِن شُبهاتٍ، مع الرَّدِّ عليها، ثُمَ نختِمُ البحث بخِتام مِسْك بمُعتَقَدِ أهل السُّنَّةِ والجماعة، الصحابة والتابعين والذين اتَّبعُوهُم بإحسان، جعلنا الله وإياكم مِنهم وحَشَرَنا في زُمْرَتِهم أجمعين.

بعض المذاهب والفِرَق

أولاً: المُشَبِّهة والمُجَسِّمة:

هُم القائِلون عَنِ الله: هو جِسْمٌ كالأجسامِ، وَوَصَفوهُ بخصائِصِ المخلوقاتِ، مُستَدِلين بحديثٍ رواهُ البخاري عن عبدِالله بنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: ذُكِرَ الدَّجَّالُ عند النبي ﷺ فقال: «**إنَّ الله لا يَخْفَى علَيْكُم، إنَّ الله ليسَ بأَعْوَرَ -وأَشَارَ بيَدِهِ إلى عَيْنِهِ-، وإنَّ المَسِيحَ الدَّجَّالَ أَعْوَرُ العَيْنِ اليُمْنَى، كَأَنَّ عَيْنَهُ عِنَبَةٌ طَافِيَةٌ**»(١).

وقالوا: في قوله ﷺ: «**وأشار بيده إلى عينه**» دلالةٌ على أنَّ عَينَهُ كسائِرِ الأعين(٢).

وقالوا: له وَجْهٌ كأوجُهِنا، ويَدٌ كأيدِينا، وسَمْعٌ كأسماعِنا... إلخ.

أقولُ: تعالى الله عن ذلِك عُلوًّا كَبيرًا، وحَسْبُنا أنْ نَرُدَّ عليهم بقول الله سبحانه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١]. وفيها ما يكفي مِنَ الردِّ على هؤلاء.

(١) رواه البخاري (٧٤٠٧)، ومسلم (١٦٩).

(٢) فتح الباري (١٣/ ٣٨٩).

ثانيًا: النُّفاة والـمُعَطِّلة:

هُم القائِلون عَنِ الله أيضًا: «لا هو داخِل العالَم، ولا خارِجَه، ولا فَوقَه، ولا تَحتَه، ولا أمَامَه، ولا وَرَاءَه، ولا عَن يمِينِه، ولا عَن شِمالِه، ولا مُتصِلًا بِه، ولا مُنفصِلًا عنه، ولا مُباينًا له، ولا مُحايِثًا له... إلخ».

وما أجْمَلَ ما قاله ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ في الردِّ على هؤلاء، وهذا نصه: «فَإِذَا قِيلَ لِلْعُقَلَاءِ: مَوْجُودَانِ قَائِمَانِ بِأَنْفُسِهِمَا، لَا يَكُونُ هَذَا خَارِجًا عَنْ الْآخَرِ ولا مُبَايِنًا لَهُ، وَلَا دَاخِلًا فِيهِ، وَلَا قَرِيبًا مِنْهُ، وَلَا بَعِيدًا عَنْهُ، وَلَا فَوْقَهُ وَلَا تَحْتَهُ، وَلَا عَنْ يَمِينِهِ وَلَا عَنْ يَسَارِهِ، وَلَا أَمَامَهُ وَلَا وَرَاءَهُ، وَلَا يُتَصَوَّرُ أَنْ يُشِيرَ أَحَدُهُمَا إلَى الْآخَرِ، وَلَا يَذْهَبَ إلَيْهِ، وَلَا يَقْرُبَ مِنْهُ، وَلَا يَبْعُدَ عَنْهُ، وَلَا يَتَحَرَّكَ إلَيْهِ وَلَا عَنْهُ، وَلَا يُقْبِلُ إلَيْهِ، وَلَا يُعْرِضُ عَنْهُ، وَلَا يَحْتَجِبُ عَنْهُ، وَلَا يَتَجَلَّى لَهُ، وَلَا يَظْهَرُ لِعَيْنِهِ، وَلَا يَسْتَتِرُ عَنْهُ، وَأَمْثَالُ هَذِهِ الْمَعَانِي الَّتِي يَقُولُهَا النُّفَاةِ؛ عَلِمَ الْعُقَلَاءُ بِالِاضْطِرَارِ امْتِنَاعَ وُجُودِ مِثْلِ هَذَيْنِ»[1].

وهم القائلون: «لا نَقُولُ إنَّهُ مَوجُودٌ ولا لا مَوجُود، ولا حَيٌّ ولا لا حَيّ، ولا عَالِمٌ ولا لا عالِم... إلخ»[2].

---

(١) مجموع الفتاوي (٢٩٧/ ٥).

(٢) نَسَب شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ في مجموع الفتاوى هذا القول إلى القرامطة الذين ينفون عن الله النقيضين، انظر: «٥/ ٣٢٧».

قالوا هذا فِرارًا مِن تشبيهه بالموجودات والمعدومات، فإثباتُ الوجُودِ له - في زَعمِهم- تَشبيهٌ له بالموجودات، ونَفيُ الوجود عنه -في زَعمِهم- تَشبيهٌ له بالمعدومات، ففِرارُهم مِن تشبيهِهِ بالموجودات، ومِن تشبِيهِهِ بالمعدومات؛ أوقَعَهُم في شَرِّ أنواع التعطيل وأسْوَأه؛ فنفوا بذلك وجُودَ الله بالكليَّةِ! عليهم لعائِنُ الله والملائكة والناس أجمعين.

ورحم الله ابن تيمية إذ يقول: «ثُمَّ إنَّهُمْ لَمْ يَخْلُصُوا مِمَّا فَرُّوا مِنْهُ، بَلْ يَلْزَمُهُمْ عَلَى قِيَاسِ قَوْلِهِمْ أَنْ يَكُونُوا قَدْ شَبَّهُوهُ بِالْمُمْتَنِعِ الَّذِي هُوَ أَخَسُّ مِنْ الموجُودِ وَالمعدُومِ الممْكِنِ؛ فَفَرُّوا فِي زَعْمِهِم مِنْ تَشْبِيهِهِ بِالموجُودَاتِ وَالمعْدُومَاتِ، وَوَصَفُوهُ بِصِفَاتِ الممْتَنِعَاتِ الَّتِي لَا تَقْبَلُ الْوُجُودَ، بِخِلَافِ المعْدُومَاتِ الممْكِنَاتِ... . وَمَا فَرَّ مِنْهُ هَؤُلَاءِ الْمَلَاحِدَةُ لَيْسَ بِمَحْذُور؛ فَإِنَّهُ إذَا سُمِّيَ حَقًّا مَوْجُودًا قَائِمًا بِنَفْسِهِ، حَيًّا، عَلِيمًا، رَؤوفًا، رَحِيمًا، وَسُمِّيَ الْمَخْلُوقُ بِذَلِكَ؛ لَمْ يَلْزَمْ مِنْ ذَلِكَ أَنْ يَكُونَ مُمَاثِلًا لِلْمَخْلُوقِ أَصْلًا، وَلَوْ كَانَ هَذَا حَقًّا؛ لَكَانَ كُلُّ مَوْجُودٍ مُمَاثِلًا لِكُلِّ مَوْجُودٍ، وَلَكَانَ كُلُّ مَعْدُومٍ مُمَاثِلًا لِكُلِّ مَعْدُومٍ، وَلَكَانَ كُلُّ مَا يُنْفَى عَنْهُ شَيْءٌ مِنْ الصِّفَاتِ مُمَاثِلًا لِكُلِّ مَا يُنْفَى عَنْهُ ذَلِكَ الْوَصْفُ؛ فَإِذَا قِيلَ: السَّوَادُ مَوْجُودٌ؛ كَانَ عَلَى قَوْلِ هَؤُلَاءِ قَدْ جَعَلْنَا كُلَّ مَوْجُودٍ مُمَاثِلًا لِلسَّوَادِ، وَإِذَا قُلْنَا: الْبَيَاضُ مَعْدُومٌ؛ كُنَّا قَدْ جَعَلْنَا كُلَّ مَعْدُومٍ مُمَاثِلًا لِلْبَيَاضِ. وَمَعْلُومٌ أَنَّ هَذَا فِي غَايَةِ الْفَسَادِ، وَيَكْفِي هَذَا خِزْيًا لِحِزْبِ الْإِلْحَادِ»(١).

(١) مجموع الفتاوى (٣٢٧/ ٥).

أقولُ: فأيُّ مُحَادَّةٍ لله وللرسولِ ﷺ أكبرُ عِند الله مِن مُلحِدٍ يَسمَعُ قول الله: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا﴾ [الفرقان:٥٨]، وقوله سبحانه: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ [آل عمران:٢] ثم يقول: «لا أقولُ حَيّ ولا لا حَيّ»!

ويَسمَعُ قَولَ الله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ ۚ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ ۚ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الأنعام:٧٣]، وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيْبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [فاطر:٣٨]، ثم يقول: «لا أقولُ عَالِم ولا لا عَالِم»!

ولكن الحقيقة كل الحقيقة: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج:٤٦]، وحَسْبُهُم قولهم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْأَذَلِّينَ﴾ [المجادلة:٢٠].

وهُم القائِلون: «سَميعٌ بلا سَمع، وبَصيرٌ بلا بَصر، وَحَيٌّ بلا حَياة، ومُرِيدٌ بلا إرادَة، ومُقتَدِرٌ بلا قُدرَة... إلخ»؛ فِرارًا مِنهُم مِن تَعدُّدِ القديم زَعموا!

ونكتفي بالردِّ عليهم بما قالهُ الفاضِلُ الشيخ محمد الأمين الشنقيطي رَحِمَهُ اللَّهُ: «ومَذهَبُهُم الباطِلُ لا يَخفَى بُطلانُه وتَناقُضه على أدنى عاقِلٍ؛ لأنَّ مِن المَعلُوم أنَّ الوَصفَ الذي مِنه الاشتِقاق إذا عُدِمَ؛ فالاشتقاق منه مُستَحيل؛ فإذا عُدِمَ السواد عن جُرْمٍ -مثلًا- استَحالَ أنْ نقول: هو أسود، إذ لا يمكن أنْ يكونَ أسود، ولم يَقُمْ بِه سَواد، وكذلك إذا لم يَقُم العلم والقدرة بِذات؛ استَحَال أنْ نَقولَ: هي عالِمَةٌ قادِرةٌ؛ لاستِحالة اتصافِها بذلك، ولَمْ يَقُمْ بِها عِلْمٌ ولا قُدرة»(١).

وهنا أسألُ أتباع هؤلاء سُؤالًا على النَّمَطِ الذي وُجِّهَ إلى بِشْرِ المَرِّيسي في فِتنة خَلْقِ القرآن؛ **فأقول**: «لا نقولُ: عالِم ولا لا عالِم، ولا حيّ ولا لا حَيّ، وسَميع بلا سَمع، وبصِير بلا بَصَر، وحَيّ بلا حَياة، وقادِر بلا قُدْرة... إلخ»؛ هل هذا القَول مِن الإسلام الذي أكمله الله وأتمَّه ورضِيَهُ لنا دِينًا أم لا؟!

فإن قُلتم: مِن الدِّين؛ نقولُ لكم: هل عَلِمه النبي ﷺ أم جَهِله؟ فإنْ قُلتم: جَهِلَهُ؛ نقولُ لكم: إنَّكُم قد نَسَبْتُم إلى النبي ﷺ الجَهل في الدِّين!

شيءٌ مِن الدِّين جَهِلَهُ النبي ﷺ، وعَلِمْتُوهُ أنتم؟! سُبحانَكَ هذا بُهتانٌ عَظِيم!

---

(١) أضواء البيان (١/ ٣٠٩).

وإنْ قُلتم: عَلِمَهُ ﷺ؛ نقول لكم: هل عَلَّمَه أحدًا مِن أصحابه -رضوان الله عليهم- أم سَكَتَ عنه؟!

فإنْ قُلتم: عَلَّمه؛ نقول لكم: مَن رَوى هذا عنه ﷺ؟! وفي أيِّ الكتب رُوِيَ؟! ودُونَكم خَرْطُ القتَاد، أنْ تُثبِتوا ذلك وأنَّى لكم التناوش!

وإذا قُلتم: سَكَتَ عنه، ولم يُعلِّمْهُ أحدًا مِن أصحابه؛ نقولُ لكم: شيءٌ سَكَتَ النبي ﷺ، ولم يُعلِّمْهُ أحدًا مِن أصحابه، وسَكَتَ عنه الخلفاء والصَّحابة، وسَكَتَ عنه التابِعون وتابِعوهم بإحسانٍ إلى يومِنا هذا، ولم يُعَلِّموه أحدًا مِن العالَمين، ألا يَسَعُكُم السكوت عنه؟! لا وَسَّع الله على مَنْ لَمْ يَسَعْهُ ما وَسِعَ رسول الله ﷺ وصحابته -رضوان الله عليهم-!

وهذا السؤال يَصلُح أنْ يسأل بِه عَن كل قول قاله الزَّنادِقة، والباطِنية الحاقدة، وعُلماءُ الكلام، وكذلك أتباع المُشبِّهَة، والمُجَسِّمَة، والمُعَطِّلَة، والمُؤَوِّلة، والواقِفة، والمُفَوِّضَة، وغيرهم ولله الحمد والمنَّة.

وهُم القائلون: «مَن قالَ: إنَّ الله فوقَ العرشِ، أو فوقَ عِباده، أو في السَّماء؛ فقد زَعَمَ أنَّه مَحصُورٌ، وأنَّه جِسمٌ مُرَكَّبٌ مَحدود، وأنَّه مُشابِهٌ لخَلْقِه».

وفرارًا مِن التشبِيه والحَصْرِ والتَحيُّز قالوا: «الله في كل مكان».

نقولُ لهؤلاء: إنَّ القائِل بفَوقِية الله فوقَ عِبادِه، وإنَّه مُستوٍ على عرشه، وإنَّه في السماء، هو الله سبحانه، ثُم قالها رسوله ﷺ، ثم قالها الخلفاء، والصَّحابة، وأمهات المؤمنين، ثم قالها التابِعون، والذين اتبعُوهُم بإحسانٍ، والنصوص كثيرة وكثيرة جدًّا، في كتاب الله، وسُنَّة نبيه ﷺ، مَشهورة في كُتب السَّلَف مِن التابِعين ومَن تبِعَهم بإحسانٍ إلى يومِنا هذا، وإليكَ أخي المُسلِم بعضًا مِن تلك النصوص، التي تكادُ لا تُحصَى في كِتاب الله، وسُنَّة نبيه ﷺ، وأقوال السَّلَف -رِضوان الله عليهم أجمعين-.

■ قال الله تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ [طه:٥]، وقال سبحانه: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ﴾ [الحديد:٤]، ثم ذَكَرَ الاستواء الذي هو بِمعنى العُلُو، في سَبْعِ مواضع مِن كتابه.

■ وقوله تعالى: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [الملك:١٦]، ذَكَرَها في موضعين.

■ وقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَهُوَ ٱلۡقَاهِرُ فَوۡقَ عِبَادِهِۦ﴾ [الأنعام:١٨]، وقوله سبحانه: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوۡقِهِمۡ﴾ [النحل:٥٠]، وقوله سبحانه: ﴿وَيَحۡمِلُ عَرۡشَ رَبِّكَ فَوۡقَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ ثَمَٰنِيَةٞ﴾ [الحاقة:١٧].

■ وقولُ النبي ﷺ: «**إنَّ الله لَمَّا قَضَى الخَلْقَ؛ كَتَبَ عِنْدَهُ فَوْقَ عَرْشِهِ: إنَّ رَحْمَتي سَبَقَتْ غَضَبِي**»(١).

(١) رواه البخاري (٣١٩٤)، ومسلم (٢٧٥١)، والترمذي (٣٥٤٣).

▪ وقوله ﷺ: «أَلَا تَأْمَنُونِي وَأَنَا أَمِينُ مَن فِي السَّمَاءِ»[1].

▪ وقول زَينب: «زَوَّجَنِي اللهُ تَعالَى مِنْ فَوْقِ سَبْعِ سَماواتٍ»[2]. وفي رِواية: «إنَّ اللهَ أنْكَحَنِي فَي السَّمَاءِ».

▪ وقال الأوزاعي: «كُنَّا والتابِعون مُتَوافِرونَ، نَقولُ: إنَّ اللهَ فَوقَ عَرشِهِ، ونُؤمِنُ بِما وَرَدَتْ بِهِ السُّنَّةُ مِنْ صِفاتٍ».

▪ وقال الإمام أبو حنيفة رَحِمَهُ اللَّهُ عمَّن قال: لا أعرِفُ رَبي في السَّماءِ أمْ فِي الأرضِ: قد كَفَرَ؛ لأنَّ الله يقول: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ [طه:٥]، وعرشه فوق سبع سماوات؛ قلتُ: فإنْ قالَ قائِلٌ: إنَّه على العَرش، ولكن لا أدري العَرش في السَّماء أم في الأرض، قال: هُو كافِرٌ، وإنَّه يُدعى مِن أعلى لا مِن أسفل، وفي روايةٍ قال: «إذا أنكر أنَّه في السماء كَفَرَ؛ لأنَّه تعالى في أعلى عِليين، وأنَّهُ يُدْعَى مِن أعلى لا مِن أسفل»[3].

---

(١) رواه البخاري (٧٤٣٢)، ومسلم (١٠٦٤).

(٢) رواه البخاري (٧٤٢٠)، والترمذي (٣٢١٣).

(٣) ولما راجعتُ الفتاوى لابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ (٥/ ١٨٣) أوردَ الآتي: «...وَقَالَ أَبُو مُطِيعٍ البلخي فِي كِتَابِ (الْفِقْهِ الْأَكْبَرِ) المشْهُور: سَأَلْتُ أَبَا حَنِيفَةَ عَمَّنْ يَقُولُ: لَا أَعْرِفُ رَبِّي فِي السَّمَاءِ أَوْ فِي الْأَرْضِ؛ فقَالَ: قَدْ كَفَرَ؛ لِأَنَّ الله عَزَّوَجَلَّ يَقُولُ: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ وَعَرْشهُ فَوْقَ سَبْعِ سَمَاوَات؛ فَقُلْت: إنَّهُ يَقُولُ: عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى وَلَكِنْ لَا يَدْرِي الْعَرْش فِي السَّمَاءِ أَوْ فِي الْأَرْضِ؛ فَقَالَ: إذَا أَنْكَرَ أَنَّهُ فِي السَّمَاءِ كَفَرَ؛ لِأَنَّهُ تَعَالَى فِي أَعْلَى عِلِّيِّينَ؛ وَأَنَّهُ يُدْعَى مِنْ أَعْلَى لَا مِنْ أَسْفَل» اهـ.

▪ وقالَ الإمامُ مالِكٌ: «اللهُ في السماء، وعِلْمُه في كل مَكان».

▪ وعَنه قالَ: «ومَن اعتقدَ أنَّه ليس فَوقَ السماوات إلهٌ يُعبَدُ، ولا على العَرش رَبٌّ يُصلّى له ويُسْجَد، وأنَّ مُحمدًا لَمْ يُعْرَج بِهِ إلى رَبه، ولا نَزَلَ القُرآن مِن عِنده؛ فهو مُعَطِّلٌ، فرعوني، ضَالٌّ، مُبتَدِع».

▪ وقالَ أيضًا: «فإنْ لَمْ يَعتقِد ذلك -ما جاءَ بِه الكِتابُ والسُّنة، واتَّفَقَ عليه سَلَفُ الأُمَّة وأئِمتها- مِنْ أنَّ الله فوق سماواته على عرشه بائِن مِن خَلقه؛ يكونُ مُكَذِّبًا للرسول ﷺ مُتَّبِعًا لغير سَبِيل المؤمنين، بَلْ يَكونُ في الحقيقة مُعَطِّلًا لِرَبِّه نافيًا له، فلا يكونُ له في الحقيقة إلهٌ يَعبُدهُ، ولا رَبٌّ يَسألُه ويَقصِده، وهذا قولُ الجَهْمية ونحوهم مِن أتباع فِرعون المُعَطِّل، واللهُ قد فَطَرَ العِباد عَرَبَهُم وعَجَمَهُم على أنَّهم إذا دَعوا تَوجَّهَت قُلوبُهم إلى العُلو ولا يقصِدُونَه تَحتَ أرجُلِهم»[(١)].

▪ وقالَ الإمام أحمد على قولِ الجارِية عندما سألها الرسول ﷺ أين الله؟ قالت: «في السماء»: لكن ليسَ معنى ذلكَ أن الله في جَوْفِ السَّماء وأنَّ السَّماواتِ تَحصُرُه وتَحْويه؛ فإنَّ هذا لَمْ يقله أحدٌ مِن سَلَفِ الأمَّة وأئِمتِها، بل هُم مُتفِقون على أنَّ الله فوق سماواته على عرشه، بائِن مِن خَلقِه، ليس في مخلوقاته شَيءٌ مِن ذاتِه، ولا في ذاتِه شيءٌ مِن مخلوقاته[(٢)].

---

(١) مجموع الفتاوى (٥/ ٢٥٨).

(٢) مجموع الفتاوى (٥/ ٢٥٨).

▪ وقال الترمذي: هوَ على العَرشِ كما وَصَفَ نَفسَهُ في كِتابه، وعِلمُه وقُدْرَته وسُلطانه في كُل مَكان. سُئِل ابن المبارك: بِمَ نَعرِف ربنا؟ قال: «بأنه فوق سماواته على عرشه، بائِن مِن خَلْقِه، ولا نقول كما قالت الجهمية أنَّه ها هُنا في الأرض»(١).

▪ وقال الإمام عبدالقادر الجيلاني رَحِمَهُ اللَّهُ(٢): وهو بِجِهة العُلو، مُسْتَوٍ على العَرشِ، مُحتَوٍ على المُلْكِ، مُحيطٌ عِلْمُه بالأشياء؛ قال تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّـٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر:١٠]، وقال سبحانه: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [السجدة:٥]، ولا يجوز وصفه بأنه في كل مكان، بل يقال: إنه في السماء على العرش، كما قال: ﴿ٱلرَّحْمَـٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه:٥](٣).

---

(١) مجموع الفتاوى (٥/ ٣٩).

(٢) عبدالقادر الجيلاني؛ ولد عام (٤٧٠هـ)، وتوفي عام (٥٦١هـ)، وهو الشيخ الإمام العالم الزاهد العارف القدوة شيخ الإسلام، وعلَم الأولياء، فقيه الحنابلة والشافعية ببغداد. كان مجاب الدعوة، سريع الدمعة، دائم الذكر، كثير الفكر، رقيق القلب، دائم البشر، كريم النفس، سخي اليد، غزير العلم، حيث ذكر في تفسير آية واحدة أربعين وجهًا، يعزو كل وجه لقائله. كان يحضر مجلسه الألوف، فيهم أربعمائة مُحْبَرَةٌ، تلاميذه كثير؛ منهم: ابن قدامة -صاحب المغني-، وابن خالته -الحافظ عبدالغني المقدسي-. تاب في مجلسه أكثر من مائة ألف من العصاة، ودخل في الإسلام خمسة آلاف، كان يدرِّس ثلاثة عشر علمًا؛ في: التفسير، والحديث، والأصول، والنحو، والمذهب، والقراءات... إلخ، ومع هذا رموه بالجهل لَمَّا بهتوه فاتهموه بالتصوف الذي هو جهل كله، أو كله جهل!

(٣) كتاب الغنية للجيلاني رَحِمَهُ اللَّهُ.

ومع كَثرَة النقول؛ لَمْ نَرَ أحدًا نَقَلَ عَن الله، أو عَن رسوله ﷺ، أو عَن أحدٍ مِن الخلفاء، والصحابة، والتابِعين وتابِعيهم، أو حتى عن الأئِمة -رضوان الله عليهم أجمعين-؛ لَمْ نَرَ أحدًا منهم قال أبدًا بالجِهة، أو الحَصْر، أو التَحَيُّز، والجِسم، والمُرَكَّب، والمَحدُود، وإنما زَعَقَ بها طوائف الباطِل، ورَثَة الصابِئة، وعلماء الكلام، ورَثة الفلاسفة الملحدين، وأشباه اليهود، ولعلَّه لَمْ يخطر ببالِ أحدٍ كامِل العقل سليم الفطرة -بعد أن يسمع كلام الله في كتابه أنَّه بكل شيءٍ محيط- أنَّ شيئًا مِن الأشياء يُحيط به سبحانه أو يَحْصُرَه، تعالى الله عَن ذلك عُلوًّا كبيرًا، وكيف يُحَاطُ به سبحانه وقد وَسِعَ كُرسيه السماوات والأرض، وهو المُحِيط بالأشياء، ولكِن رَحِمَ الله ابن القيم حيث قال: «وَالْجَهْمِيَّةُ نَزَّهُوا الله عَنْ عَرْشِهِ، لِئَلَّا يَحْوِيَهُ مَكَانٌ، ثُمَّ قَالُوا: هُوَ فِي الْآبَارِ وَالْأَنْجَاسِ! وهَكَذَا طَوائِفُ البَاطِلِ، لَمْ يَرْضَوْا بِنُصُوصِ الوَحي؛ فابتلوا بِزُبَالة أذهان المُتَحيِّرين، وَوَرَثَة الصَّابِئِين، وأفرَاخ المُتَفَلسِفَة المُلحِدِين»[1].

وإنَّه لَمِن المَعلوم أنَّ جَميع المخلوقات كالأرض، والسَّماء، والجنة، تنتهي بالعرشِ، والعرشُ مَحِيطٌ بِها جميعها، وبانتِهاء العَرشِ تَنتَهي المَخلوقات، وليسَ فَوقَه شَيءٌ مِنها، والجِهات لا تكون إلا بالنِّسبَة للمخلوق، فإذا انعَدَمَ المخلوق عِندَ أعلى المخلوقات الذي هو العرش؛ انعدمت الجِهة، فإذا قالَ قائِلٌ: اللهُ فوقَ العرش أو «فِي السَّماء»، فأيُّ مَعنَى لِهذا الحَصْر المزعوم؟! مع العِلْم بأنَّ الذي قال: «في السماء» هو الله والرسول ﷺ.

(١) مختصر الصواعق المرسلة (١/ ٨٧).

ومعنى السماء: العلو، و «في» تأتي بمعنى «على»؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾ [طه:٧١]؛ أيّ: على جُذوع النَّخل، ويَشهَدُ لهذا ما رواه البخاري عن زينب: «وزَوَّجَنِي اللهُ تعالى مِنْ فَوْقِ سَبْعِ سَمَاواتٍ»(١)، فتبيَّن مِن كلمة «في السَّماء» أنَّ الله على السَّماء في العُلو، وعُلو الله تعالى لا نهاية له، وكذلك جميع صِفاته لا نهاية لها، والرسولُ ﷺ وَصَفَ رَبَّه بأنَّه عالٍ فوق مخلوقاتِه؛ فقال: «وَأَنْتَ الظَّاهِرُ فليسَ فَوْقَكَ شيءٌ»(٢)؛ فَثَبَتَ بالنَّصِّ عَن النبي ﷺ أنَّ اللهَ فَوقَ المَخلوقاتِ، وليسَ فَوقَهُ شيءٌ، إذًا فلا مَعنى لهذا الحَصْرِ المَزعُوم! والله تعالى أعلم.

وهم القائلون: «اللهُ مُنَزَّهٌ عَن الجِهة، ولا يُشَارُ إليه بِـ أين».

نقولُ: إنْ أرادوا بذلك أنَّه مُنَزَّهٌ عَن جِهة وجودِية تُحيط بِه وتَحويه وتَحصُرُهُ كإحاطة الظَّرف بالمظروف؛ فَنَعَم، وهذا ما نَعتقِده؛ فالله تعالى مُنَزَّهٌ عن المكان، وأجلّ، وأعظَم، وأكرَم، وأكبَر مِن أن يُحِيط به مكان، أو يَحُدَّهُ مَكانٌ، وقد كان ولا مكان، فكيف يُحِيط به المكان وهو المُحِيط بالمكان بل وبكل شيءٍ مُحيط.

قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ﴾ [البروج:٢٠]، وقال سبحانه: ﴿أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ﴾ [فصلت:٥٤]. وإنما أرادوا بالجِهة الاستواء على العرش، والفَوقِية، والعُلو على جميع مخلوقاته، وأنَّه في السَّماء؛ فقد أَتَوا مُنكَرًا مِن القول وزُورًا، وَنَفَوْا عن الله ما أثبَتَه لنفسه في مُحكَم كِتابه، وما أثبَتَه له رسول الله ﷺ.

(١) وفي رواية للبخاري (٧٤٢١): «أنها كانت تقول: إنَّ الله أنكحني في السَّماء».

(٢) رواه مسلم (٢٧١٣)، وأبو داود (٥٠٥١)، والترمذي (٣٤٨١).

وخالفوا بذلك النُّصوصَ القطعِية الثابتة، وشاقُّوا الله ورسوله ﷺ، واتَّبعوا غير سَبيل المؤمنين، وحَسْبُهم قول الله: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الحشر:٤].

وقوله تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء:١١٥].

وأيُّ مُشَاقَّةٍ لله وللرسولِ ﷺ أعظم عِندَ الله مِن رَجُلٍ يَسمعُ كلام الله: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [الملك:١٦]، وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ [الأنعام:١٨]، وقوله تعالى: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ [النحل:٥٠]، وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [السجدة:٤]، ويسمع قوله ﷺ: «إِنَّ الله كَتَبَ كِتابًا قَبْلَ أنْ يَخْلُقَ الخَلْقَ: إنَّ رَحْمَتي سَبقَتْ غَضَبِي، فَهو مَكْتُوبٌ عِنْدَهُ فَوْقَ العَرْشِ»(١)، وقوله ﷺ: «أَلَا تَأْمَنُونِي وَأَنَا أَمِينُ مَن في السَّمَاءِ»(٢)، وقوله ﷺ: «إِلَّا ظَلَّ الذي في السَّمَاءِ سَاخِطًا عَلَيْهَا»(٣)، وقوله ﷺ: «أنتَ الظَّاهرُ فلَيس فوقَك شيءٌ»(٤)، وإقرارُهُ ﷺ للجارية عندما قالت: «في السماء» وشهادَتُه لها بالإيمان.

---

(١) رواه البخاري (٧٥٥٣)، ومسلم (٢٧٥١).

(٢) رواه البخاري (٧٤٣٢)، ومسلم (١٠٦٤).

(٣) رواه مسلم (١٤٣٦) بلفظ: «...إلا كان الذي في السماء ساخطًا عليها حتى يرضى عنها».

(٤) رواه مسلم (٢٧١٣)، وأبو داود (٥٠٥١)، والترمذي (٣٤٨١).

ويقولُ: إنَّهُ ليس في السَّماء إلهٌ يُعبَدُ، ولا على العَرشِ رَبٌّ يُصَلَّى لهُ ويُسْجَدُ!

وما أعظم ما قاله ابن خزيمة في هؤلاء الزنادقة: «وَمَنْ لَمْ يَقُل: إنَّ اللهَ فوقَ سَماواتِهِ على عَرشِهِ، بائِن مِن خَلْقِهِ، وَجَبَ أنْ يُستَتابَ، فإنْ تابَ، وإلَّا ضُرِبَت عُنُقُه، ثُم أُلقِي على مَزبَلَةٍ؛ لئلَّا يَتأذى بِهِ أهلُ القِبْلَة، ولا أهلُ الذِّمَّة»(١).

وما قاله شيخ الإمام أحمد «سَعِيدُ بنُ عامِرٍ الضَبعي» عند ذِكْرِ الجهمية: «هُم أَشَرُّ قَولًا مِن اليهود والنصارى، وقد أجمعَ اليهود والنصارى وأهلُ الأديان مع المسلمين، على أنَّ اللهَ على العَرش، وهُم قالوا: ليسَ عَلى شيءٍ»(٢).

ومِمَّا لا شكَ فيه أنَّ قائِل هذا القَولِ بالإضافة إلى أنَّه شَاقَّ الله ورسوله؛ فقد اتَّبَع غير سَبيلِ المؤمِنين، وخالَف جُمهورَ الصَّحابة والتابِعين، بل جميع أصحاب الديانات السابقين، وحسبه ذلك!

---

(١) مجموع الفتاوى (٥/ ١٣٨). ولله در ابن قيم الجوزية لما قال:

وبـأنـه سبحانه حقًّا علـى الـ ** ـعرش الرفيع فَجَلَّ ذو السلطانِ

وهو الذي قد شجع ابن خزيمةٍ ** إذ سـل سيـف الـحق والعرفـانِ

وقضى بقتـل المنكـرين علـوه ** بعـد استتابتـهم من الكفـــرانِ

وبأنـهم يلقون بعـــد القتل فو ** قَ مـزابـل الـميتات والأَنْتَـــانِ

(٢) «**الرد على الجهمية**» لابن أبي حاتم.

وأما قولهم: «لا يُشَارُ إليهِ بـ أين»؛ فهذه العِبارة المُضَلِّلة، لا تَصدُر إلَّا مِن زِنديقٍ، أو باطِنِيٍّ حاقِدٍ، أو مِن فَرخٍ مِن أفراخِ اليهودِ، والمُتَفَلسِفَة المُلحِدين، وخاصَّة بعد العِلْمِ بسُؤال النبي ﷺ للجارية بـ «**أيْنَ الله**»(١) وشهادته لها بالإيمان.

وَيَا للأسف! فقد لاقَتْ هذِه الكَلِمة وأمثالُها رَواجًا كبيرًا فِي عالمِنا العربي والإسلامي، وتَلقَّفَها الكثيرُ مِن عُلماء العصر، وغَيرِهم مِن الأزاهِرة، والصُّوفِية، فتَبنوها، ونَشَروها، ودَافَعوا عنها بِكُل ما لديهم مِن قُوةٍ، وظَنوا أنَّها هِي عَينُ التنزيه.

ومِمَّا لا شَكَ فِيه أنَّ قائِل «لا يُشَارُ إليهِ بـ أين» قد نَصَّبَ نفسه بأنَّهُ أعلَمُ بالله وبِما يَلِيقُ بالله مِن الله، وأعلَمُ بالله وبِما يَليق بالله مِن رَسولِ الله ﷺ! ولا جَرَمَ أنَّهُ قَد حادَّ اللهَ ورسولَـهُ ﷺ في مقالتِه هذه؛ فالرسول ﷺ يَسألُ الجارية قائِلًا لها: «**أين الله؟**» وتُجِيبُه بقولها: «في السماء» ويَشهَدُ لها بالإيمان، وأفراخُ الفلاسِفة والزنادِقة يَعُدُّونه حَصْرًا وتَشبِيهًا!

فرَحِمَ الله ابن كُلَّاب، حيث يقول: «وَرَسُولُ الله ﷺ وَهُوَ صَفْوَةُ الله مِنْ خَلْقِهِ، وَخِيرَتُهُ مِنْ بَرِيَّتِهِ، وَأَعْلَمُهُمْ جَمِيعًا؛ يُجِيزُ (الْأَيْنَ) وَيَقُولُهُ وَيَسْتَصْوِبُ قَوْلَ الْقَائِلِ: إنَّهُ فِي السَّمَاءِ، وَشَهِدَ لَهُ بِالْإِيمَانِ عِنْدَ ذَلِكَ؛ وَجَهْمُ بْنُ صَفْوَانَ وَأَصْحَابُهُ لَا يُجِيزُونَ (الْأَيْنَ) وَيُحَرِّمُونَ الْقَوْلَ بِهِ؟!».

---

(١) رواه مسلم (٥٣٧)، وأبو داود (٩٣٠)، والنسائي (١٢١٨).

قَالَ: وَلَوْ كَانَ خَطَأً لكَانَ رَسُولُ الله ﷺ لا يُقِرُّهُ وهو أَحَقَّ بِالْإِنْكَارِ لَهُ، وَكَانَ يَنْبَغِي أَنْ يَقُولَ لَهَا: لَا تَقُولِي ذَلِكَ فَتَوَهَّمِي أَنَّهُ ﷻ مَحْدُودٌ، وَأَنَّهُ فِي مَكَانٍ دُونَ مَكَانٍ، وَلَكِنْ قُولِي إِنَّهُ فِي كُلِّ مَكَانٍ؛ لِأَنَّهُ هُوَ الصَّوَابُ دُونَ مَا قُلْت. كَلَّا فَلَقَدْ أَجَازَهُ رَسُولُ الله ﷺ مَعَ عِلْمِهِ بِمَا فِيهِ وَأَنَّهُ أَصْوَبُ، بَلْ الْأَمْرُ الَّذِي يَجِبُ بِهِ الْإِيمَانُ لِقَائِلِهِ، وَمِنْ أَجْلِهِ شَهِدَ لَهَا بِالْإِيمَانِ حِينَ قَالَتْهُ، وَكَيْفَ يَكُونُ الْحَقُّ فِي خِلَافِ ذَلِكَ، وَالْكِتَابُ نَاطِقٌ بِهِ وَشَاهِد؟!» اهـ[1].

(١) مجموع الفتاوى (٥/ ٣١٩).

ثالثًا: المؤوِّلة مِن الخَلَف:

هُم القائلون: «إنَّ ظواهِر هذه الصِّفات، والمتبادر للذهن، والسابِق إلى الفَهم، مِن معاني الاستِواء، واليد، والوجه، والسَّاق، والأصابع، والنُّزول، والضَحِك، والتَعجُّبِ، والسَّخط، والرِّضى، ونحو ذلك؛ هو مُشابَهة صِفات الحوادث؛ فقالوا: يَجبُ علينا أنْ نَصرِفها عن ظاهِرها إجماعًا؛ لأنَّ مَن يعتقد بظواهِرها فهو مُشَبِّهٌ، ومَن شبَّه الله بخلقِه فقد كَفَرَ». هذا مُلَخص ما قالوه.

ورَحِمَ اللهُ «الشيخ محمد الأمين الشنقيطي» حَيثُ يَقولُ في رَدِّهِ عليهم:

«وَلَا يَخْفَى أَنَّ هَذَا الْقَوْلَ مِنْ أَكْبَرِ الضَّلَالِ، وَمِنْ أَعْظَمِ الِافْتِرَاءِ عَلَى الله تعالى وَرَسُولِهِ ﷺ، وَالْحَقُّ الَّذِي لَا يَشُكُّ فِيهِ أَدْنَى عَاقِلٍ، أَنَّ كُلَّ وَصْفٍ وَصَفَ الله بِهِ نَفْسَهُ، أَوْ وَصَفَهُ بِهِ رَسُولُهُ ﷺ، فَظَاهِرُهُ المتبَادِرُ مِنْهُ السَّابِقُ إِلَى فَهْمِ مَنْ فِي قَلْبِهِ شَيْءٌ مِنَ الْإِيمَانِ، هُوَ التَّنْزِيهُ التَّامُّ عَنْ مُشَابَهَةِ شَيْءٍ مِنْ صِفَاتِ الْحَوَادِثِ.

فَبِمُجَرَّد إَضَافَةِ الصِّفَةِ إليهِ سبحانه يَتبَادَرُ إلى الفَهْمِ أَنَّهُ لا مُنَاسَبَةَ بَينَ تِلكَ الصِّفَةِ المَوصُوفِ بَها الخَالِق، وبَينَ شَيءٍ مِن صِفاتِ المَخْلُوقِين، وهَلْ يُنكِرُ عَاقِلٌ أَنَّ السَّابِقَ إلى الْفَهْمِ المتبَادِر لِكُلِّ عَاقِلٍ: هُوَ مُنَافَاةُ الْخَالِقِ لِلْمَخْلُوقِ فِي ذَاتِهِ، وَجَمِيعِ صِفَاتِهِ؟! لَا وَالله لَا يُنْكِرُ ذَلِكَ إِلَّا مُكَابِرٌ!

وَالْجَاهِلُ المفْتَرِي الَّذِي يَزْعُمُ أَنَّ ظَاهِرَ آيَاتِ الصِّفَاتِ لَا يَلِيقُ بِالله لِأَنَّهُ كُفْرٌ وَتَشْبِيهٌ؛ إِنَّمَا جَرَّ إِلَيْهِ ذَلِكَ تَنْجِيسُ قَلْبِهِ بِقَذَرِ التَّشْبِيهِ بَيْنَ الْخَالِقِ وَالْمَخْلُوقِ، فَأَدَّاهُ شُؤْمُ التَّشْبِيهِ إِلَى نَفْيِ صِفَاتِ الله تعالى، وَعَدَمِ الْإِيمَانِ بِهَا، مَعَ أَنَّهُ سبحانه هُوَ الَّذِي وَصَفَ بِهَا نَفْسَهُ، فَكَانَ هَذَا الْجَاهِلُ مُشَبِّهًا «أَوَّلًا» وَمُعَطِّلًا «ثَانِيًا»؛ فَارْتَكَبَ مَا لَا يَلِيقُ بِالله ابْتِدَاءً وَانْتِهَاءً، وَلَوْ كَانَ قَلْبُهُ عَارِفًا بِالله كَمَا يَنْبَغِي، مُعَظِّمًا لله كَمَا يَنْبَغِي، طَاهِرًا مِنْ أَقْذَارِ التَّشْبِيهِ؛ لَكَانَ المتبَادِرُ عِنْدَهُ السَّابِقُ إِلَى فَهْمِهِ: أَنَّ وَصْفَ الله تعالى بَالِغٌ مِنَ الْكَمَالِ وَالْجَلَالِ مَا يَقْطَعُ أَوْهَامَ عَلَائِقِ المشَابَهَةِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ صِفَاتِ المخْلُوقِينَ، فَيَكُونُ قَلْبُهُ مُسْتَعِدًّا لِلْإِيمَانِ بِصِفَاتِ الْجَلَالِ والْكَمَالِ الثَّابِتَةِ لله فِي الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ الصَّحِيحَةِ، مَعَ التَّنْزِيهِ التَّامِّ عَنْ مُشَابَهَةِ صِفَاتِ الْخَلْقِ عَلَى نَحْوِ قَوْلِهِ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١]»[(١)].

■ وقال ابن القيم: «فَصْلٌ فِي بَيَانِ أَنَّ التَّأْوِيلَ شَرٌّ مِنَ التَّعْطِيلِ؛ فَإِنَّهُ يَتَضَمَّنُ التَّشْبِيهَ وَالتَّعْطِيلَ، وَالتَّلَاعُبَ بِالنُّصُوصِ وَإِسَاءَةَ الظَّنِّ بِهَا، وَنِسْبَةَ قَائِلِهَا إِلَى التَّكَلُّمِ بِمَا ظَاهِرُهُ الضَّلَالُ وَالْإِضْلَالُ، فَلَا إِلَهَ إِلَّا الله وَالله أَكْبَرُ! كَمْ هَدَمَتْ هَذِهِ المعَاوِلُ مِنْ مَعَاقِلِ الْإِيمَانِ، وَتَثَلَّمَتْ بِهَا حُصُونُ حَقَائِقِ السُّنَّةِ وَالْقُرْآنِ، فَكَشْفُ عَوْرَاتِ هَؤُلَاءِ وَبَيَانُ فَضَائِحِهِمْ؛ مِنْ أَفْضَلِ الْجِهَادِ فِي سَبِيلِ الله»[(٢)].

---

(١) أضواء البيان (١/ ٣١٩).

(٢) مختصر الصواعق المرسلة (١/ ٤٩).

▪ وقال الإمام الجويني: «وَالَّذِي شرح الله له صَدْرِي فِي حَال هَؤُلَاءِ الشُّيُوخ، والَّذين أَوَّلُوا الاسْتوَاء بِالِاسْتِيلَاءِ، وَالنُّزُول بنزول الْأَمر، وَالْيَدَيْنِ بالنعمتين والقُدرتين؛ هُوَ عِلمِي بِأَنَّهُم مَا فَهموا فِي صِفَات الرب تَعَالَى إِلَّا مَا يَلِيق بالمخلوقين، فَمَا فَهموا عَن الله اسْتِوَاءً يَلِيق بِهِ، وَلَا نُزولًا يَلِيق بِهِ، وَلَا يدين تلِيقان بعظمته، بِلَا تَكييفٍ وَلَا تَشْبِيهٍ؛ فَلذَلِك حَرَّفوا الْكَلِمَ عَن موَاضعه، وعطَّلوا مَا وَصَفَ الله تَعَالَى به نَفسه» [إثبات الاستواء والفوقية للجويني].

▪ وقال الإمام أبو حنيفة: «وَلهُ يَدٌ، وَوَجْهٌ، وَنَفْسٌ؛ فَمَا ذكره الله تَعَالَى فِي الْقُرْآن مِن ذِكرِ الْوَجْه، وَالْيَد، وَالنَّفْس؛ فَهُوَ لَهُ صِفَات بِلَا كَيفَ، وَلَا يُقَال: إِنَّ يَدهُ قدرته، أَوْ نعْمَته؛ لِأَنَّ فِيهِ إبطَال الصِّفة، وَهُوَ قَول أهل الْقدر والاعتزال، وَلَكِن يَده صفته بِلَا كَيفَ، وغضبه، وَرِضَاهُ، صفتان بِلَا كَيفَ»(١).

أقول في مقالتهم هذه: إنَّ ظواهر هذه الصِّفات، والمتبادر للذهن، والسابق إلى الفهم مِن معاني الاستواء والنزول؛ هو مِن مُشابهة صِفات المخلوقِين... إلخ؛ إساءةُ الظن بالله تعالى، واتِّهامٌ لرسوله ﷺ، وكيفَ يسوغ بمسلم يؤمن بالله واليوم الآخِر أنْ يَعتقد أن في كلام الله الذي أنزله في كتابه، ووصفَ به نفسه ما ظاهِره التشبيه والكفر، ويتهم النبيَّ ﷺ بعدم بيان ما ظاهِره الكفر والتشبيه للأمة؟! مع أنه مأمور بتبليغ الرسالة للناس كافة، وتبيين ما نُزِّل إليهم!

(١) الفقه الأكبر لأبي حنيفة، شرح التتان (٢١، ٢٢).

وكيف يخطر ببال مسلم أن استِواء الله على عرشه، ونُزولَه إلى السماء الدُّنيا، ومجيئَه يوم القيامة، ووجهه، ويده، ورِضاه، وغضبه... إلخ؛ يُشبِهُ صِفات المخلوقين، وهو القائِل تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١]؟!

ولكِن أبَى الزنادِقة، والباطِنية الحاقِدة، وأفراخُ الفلاسِفة الملحدين، وتلامِذة المتكلمين، واليهود، والمارِقون، إلا الدَّسَّ في هذا الدِّين الحنيف، وزَعزَعَة عقائدِ المسلمين، ولكن يأبى الله إلَّا أنْ يُتِمَّ نوره ولو كَرِهَ الكافرون.

صِفات كَثُر فيها النِّزاع

إتمامًا للفائدة، أودُّ أنْ أنقل لكَ -أخي القارِئ- صُوَرًا مِن الصِّفات التي كَثُرَ فيها النِّزاع، مع سَردِ أدِلة كلٍّ مِن السَّلف والخَلف، مع بيان ما قالوه، ثم نُرجِّح الراجح مِنها ونُبَين المرجوح، وأبْدأها بالاستواء؛ فأقول وبالله التوفيق:

إنَّ النظر في أيِّ مسألةٍ مِن مسائِل الشَّريعة الغرَّاء يجب أنْ يكون مِن زوايا ثلاث:

(١) ماذا وَرَدَ عن الله، أو عن رسوله ﷺ في هذه المسألة؟

(٢) ماذا فَهِمَ السلف -أعني النبي ﷺ وخلفاءه، وصحابته، ومَن اتبعوهم بإحسان- من هذا الوارد؟

(٣) كيف طَبَّقُوه عَمَلِيًّا، وماذا قالوا فيه في حياته ﷺ وبعد وفاته؟[١].

(١) هذه التي أسميتها بالقاعدة الذهبية في حسن الاتباع ومزايلة شرور الابتداع، فاستمسك بها ولا تحد عنا حتى يأتيك اليقين. انظر: مقدمة رسالة «زبدة الكلام في تحريم حلق اللحية في الإسلام».

[١] صِفة الاستواء:

ما هو الاستِواء؟

الاستِواءُ: وَرَدَ في لُغَةِ العَرَبِ -التي هِي لُغَةُ القرآنِ- وَرَدَ مُطلقًا بدون حُروفٍ، وَوَرَدَ مُقيَّدًا ومَقرُونًا بِها؛ فالمُطلق مثل قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسۡتَوَىٰٓ﴾ [القصص:١٤]؛ معناه: تمَّ وكَمُلَ، وكقولِهم: استوى الطَّعام، واستَوى التَمْرُ: نَضَجَ، واستوى فُلان وفُلان: تَسَاوَيا.

وأما المقرون بالحروف، فعلى نوعين:

(أ) ما جاء مقرونا بـ«إلى»؛ مثل قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٞ﴾ [فصلت:١١]؛ فهذا النوع معناه: القصد والارتقاء.

قال ابن كثير في تفسيره لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾ [البقرة:٢٩] أي: قَصَدَ إلى السماء والاستواء هنا متضمن معنى القَصْد والإقبال؛ لأنه عُدِّيَ بـ«إلى»، وروى القرطبي عن سفيان بن عُيَيْنة، وابن كيسان قولهما: «قَصَدَ إليها»[(١)] من تفسيره. ونقل البغوي في تفسيره عن ابن عباس، وأكثر المفسرين أنَّ معناه: ارتفع[(٢)].

---

(١) انظر تفسير القرطبي للآية (٢٩) من سورة البقرة.

(٢) فتح الباري (١٣/ ٤٠٦).

وكذلك روى البخاري عن أبي العالية في قوله: ﴿ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ [البقرة:٢٩]؛ قال: ارتفع(١).

(ب) وأما النوع الثاني المقرون بـ«على»؛ فمثل قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه:٥]، وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ﴾ [السجدة:٤]، وقوله: ﴿لِتَسۡتَوُۥاْ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ﴾ [الزخرف:١٣]، وقوله:﴿وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّ﴾ [هود:٤٤] كقولهم: «استوى الراكِبُ على راحِلَته»؛ فهذا معناه العُلو والرِّفعة، ولا شيء غير ذلك، ولنَنظر ماذا فَهِمَ المسلمون من هذا الوارد:

- قال مجاهد: «استوى: عَلا على العرش» رواه البخاري(٢).

■وقال الحافظ ابن حجر نَقلًا عن ابن بَطَّال ما نَصُّه: «وأما تفسير استوى: عَلَا، فهو صحيح، وهو المذهب الحق، وقولُ أهل السُّنة؛ لأنَّ الله سبحانه وَصَف نَفسَه بالعَلِيِّ وقال: ﴿سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ [يونس:١٨]، وهي صِفَةٌ مِن صِفات الذات»(٣).

(١) رواه البخاري قبل (٧٠٢٢)، كتاب التوحيد، باب «وكان عرشه على الماء، وهو رب العرش العظيم».

(٢) المصدر السابق.

(٣) فتح الباري (١٣/ ٤١٧)، طبعة دار الريان.

▪وقال ابن خزيمة: « بَابُ ذِكْرِ اسْتِوَاءِ خَالِقنَا، الْعَلِيِّ، الْأَعْلَى، الْفَعَّالِ لِمَا يَشَاءُ عَلَى عَرْشِهِ، فَكَانَ فَوْقَهُ وَفَوْقَ كُلِّ شَيْءٍ عَالِيًا؛ كَمَا أَخْبَرَ الله تعالى فِي قَوْلِهِ: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه:٥]، فَنَحْنُ نُؤْمِنُ بِخَبَرِ الله سبحانه أَنَّ خَالِقَنَا مُسْتَوٍ عَلَى عَرْشِهِ، لَا نُبَدِّلُ كَلَامَ الله، وَلَا نَقُولُ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَنَا، كَمَا قَالَتِ المعَطِّلَةُ الْجَهْمِيَّةُ: إِنَّهُ اسْتَوْلَى عَلَى عَرْشِهِ لَا اسْتَوَى، فَبَدَّلُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ، كَفِعْلِ الْيَهُودِ لـمَّا أُمِرُوا أَنْ يَقُولُوا: حِطَّةٌ، فَقَالُوا: حِنْطَةٌ، مُخَالِفِينَ لِأَمْرِ الله تعالى، كَذَلِكَ الْجَهْمِيَّةُ».

أقولُ: ولذلك قِيلَ: «لامُ الجهمِية في استَولى كَنُونِ اليَهودِية في حِنْطَة».

وقال «الشيخ الهَرَّاس»، تعليقًا على قول «ابن خزيمة» ما نَصُّه: «أخبَرَ اللهُ عَن استوائِه على عَرشِه في سَبعة مواضِع مِن القرآن، وكُلها بلفظِ استوى؛ مِما يَدُل أعظَمَ دَلالَة أنَّه أرادَ بالاستِواءِ حَقِيقَة مَعناه، الذي هُو العُلو والارتِفاع، فإنَّ فِعْلَ الاستِواء إذا عُدِّيَ بالحرف لا يُفْهَم مِنه إلا ذلك؛ ولهذا رَوى البخاري عن أبي العالِية ومُجاهد تَفسيرَهُ بالعُلو والارتِفاع»[(١)].

(١) كتاب التوحيد لابن خزيمة، ص١٠١.

▪ وقال ابن خزيمة أيضًا: «فَالْخَبَرُ يُصَرِّحُ أَنَّ عَرْشَ رَبِّنَا فَوْقَ جَنَّتِه، وَقَدْ أَعْلَمَنَا سبحانه أَنَّهُ مُسْتَوٍ عَلَى عَرْشِهِ، فخَالِقُنَا عَالٍ فَوْقَ عَرْشِهِ، الَّذِي هُوَ فَوْقَ جَنَّتِهِ» اهـ(١).

قوله: «فَالْخَبَرُ يُصَرِّحُ»؛ المقصود به حديث البخاري: «**فإذا سَأَلْتُمُ الله فَسَلُوهُ الفِرْدَوْسَ، فإنَّه أَوْسَطُ الجَنَّةِ، وأَعْلَى الجَنَّةِ، وفَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ، ومِنْهُ تَفَجَّرُ أَنْهارُ الجَنَّةِ**»(٢).

▪ وقال الشيخ عبدالقادر الجيلاني رَحِمَهُ اللَّهُ: «وهو بجِهَةِ العُلو، مُستَوٍ على العرش، مُحتَوٍ على المُلْكِ، مُحيطٌ عِلمه بالأشياء، إليه يَصعَدُ الكَلِمُ الطيب، والعمل الصالح يَرفعُه»(٣).

▪ وقال ابن تيمية: «وأمَّا الاستِواء فَلَمْ يَرِدْ إلَّا على العَرش فقط، ومِنْ مَعانِيه العُلو، وهو المُراد؛ لأنَّ الله يُوصَفُ بالعُلو والفَوقِية الحقيقية، ولا يُوصَف بالسُّفول والتَّحتِية»(٤).

---

(١) المصدر نفسه، ص١٠١.

(٢) رواه البخاري قبل (٧٠٢٢)، كتاب التوحيد، باب «وكان عرشه على الماء، وهو رب العرش العظيم».

(٣) كتاب الغنية.

(٤) مجموع الفتاوى (٥/ ٣٦٥).

وخُلاصة القول: إنَّ جَميع أقوال السلف والتابِعين لهم بإحسان، مُتفقة على أنَّ معنى الاستِواء «العلو». ومعلومٌ أنَّ عُلو الله تعالى لا نهاية له، وأنَّهُ سبحانه العَلِي الأعلَى، وأنَّه فوقَ مَخلوقاتِه، وليسَ فَوقَهُ شَيء مِنها، ويَشهَدُ لهذا القول، قوله ﷺ: «**وَأَنْتَ الظَّاهِرُ فليسَ فَوْقَكَ شيءٌ**...»[1]، والذي يَزِيد هذا القولَ صَلابةً ومَتانَةً؛ أنَّهُ لَمْ يُنقَل عن أحدٍ مِن السَّلَف الإنكار على مَن قالَ: «إنَّ الله عَلا عَلى عرشِه فوق مخلوقاته، وليسَ فَوقَه شَيء مِن مخلوقاته، وإلى يَومِنا هذا لم يُنكِر ويَزعَق بالتَّشبِيه والتَّمثِيل سِوى نَابِتة الزَّنَادِقة والفلاسِفة» والله أعلم.

(١) رواه مسلم (٢٧١٣)، وأبو داود (٥٠٥١)، والترمذي (٣٤٨١).

[٢] صِفة اليد:

■ قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ ﴾ [ص:٧٥].

■ قَالَ ابْنُ بَطَّالٍ: «فِي هَذِهِ الْآيَةِ إِثْبَاتُ يَدَيْنِ لله، وَهُمَا صِفَتَانِ مِنْ صِفَاتِ ذَاتِهِ، وَلَيْسَتَا بِجَارِحَتَيْنِ، خِلَافًا لِلْمُشَبِّهَةِ مِنَ الْمُثْبِتَةِ، وَلِلْجَهْمِيَّةِ مِنَ الْمُعَطِّلَةِ، وَيَكْفِي فِي الرَّدِّ عَلَى مَنْ زَعَمَ أَنَّهُمَا بِمَعْنَى الْقُدْرَةِ، أَنَّهُمْ أَجْمَعُوا عَلَى أَنَّ لَهُ قُدْرَةً وَاحِدَةً فِي قَوْلِ الْمُثْبِتَةِ، وَلَا قُدْرَةَ فِي قَوْلِ النُّفَاةِ؛ لِأَنَّهُمْ يَقُولُونَ: إِنَّهُ قَادِرٌ لِذَاتِهِ، وَيَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْيَدَيْنِ لَيْسَتَا بِمَعْنَى الْقُدْرَةِ؛ أَنَّ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى لِإِبْلِيسَ: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ﴾ إِشَارَةً إِلَى الْمَعْنَى الَّذِي أَوْجَبَ السُّجُودَ، فَلَوْ كَانَتِ الْيَدُ بِمَعْنَى الْقُدْرَةِ، لَمْ يَكُنْ بَيْنَ آدَمَ وَإِبْلِيسَ فَرْقٌ لِتَشَارُكِهِمَا فِيمَا خُلِقَ مِنْهُمَا بِهِ، وَهِيَ قُدْرَتُهُ؛ وَلَقَالَ إِبْلِيسُ: وَأَيُّ فَضِيلَةٍ لَهُ عَلَيَّ، وَقد خَلَقْتَنِي بِقُدْرَتِكَ، كَمَا خَلَقْتَهُ بِقُدْرَتِكَ، فَلَمَّا قَالَ: ﴿خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ﴾ [ص:٧٦] دَلَّ عَلَى اخْتِصَاصِ آدَمَ بِأَنَّ الله خَلَقَهُ بِيَدَيْهِ، قَالَ: وَلَا جَائِزَ أَنْ يُرَادَ بِالْيَدَيْنِ النِّعْمَتَانِ، لِاسْتِحَالَةِ خَلْقِ الْمَخْلُوقِ بِمَخْلُوقٍ؛ لِأَنَّ النِّعَمَ مَخْلُوقَةٌ، وَلَا يَلْزَمُ مِنْ كَوْنِهِمَا صِفَتَيْ ذَاتٍ أَنْ يَكُونَا جَارِحَتَيْنِ»[(١)].

(١) فتح الباري (١٣/ ٤٠٥).

▪ وَقَالَ ابْنُ التِّينِ: «قَوْلُهُ: (وَبِيَدِهِ الْأُخْرَى الْمِيزَانَ)[1] يَدْفَعُ تَأْوِيلَ الْيَدِ هُنَا بِالْقُدْرَةِ، وَكَذَا قَوْلُهُ فِي حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَفَعَهُ: «**أَوَّلُ مَا خَلَقَ اللهُ الْقَلَمَ، فَأَخَذَهُ بِيَمِينِهِ، وَكِلْتَا يَدَيْهِ يَمِينٌ...**»[2].

▪ وقال الإمام أبو حنيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «وَلَهُ يَدٌ وَوَجْهٌ وَنَفْس، فَمَا ذكره الله تَعَالَى فِي الْقُرْآن مِن ذِكرِ الْوَجْه، وَالْيَد، وَالنَّفس؛ فَهُوَ لَهُ صِفَات بِلَا كَيفَ، وَلَا يُقَال: إِنَّ يَدهُ قُدرته أوْ نعْمَته؛ لِأَنَّ فِيهِ إبطَال الصِّفة، وَهُوَ قَول أهل الْقدر والاعتزال، وَلَكِن يَده صفته بِلَا كَيفَ، وغضبه وَرضَاهُ صفتان بِلَا كَيفَ»[3].

▪ وقالَ ابن خزيمة: «وَزَعَمَ بَعْضُ الْجَهْمِيَّةِ: أَنَّ مَعْنَى قَوْلِهِ: خَلَقَ اللهُ آدَمَ بِيَدَيْهِ؛ أَيْ: بِقُوَّتِهِ؛ فَزَعَمَ أَنَّ الْيَدَ هِيَ الْقُوَّةُ، وَهَذَا مِنَ التَّبْدِيلِ أَيْضًا، وَهُوَ جَهْلٌ بِلُغَةِ الْعَرَبِ، وَالْقُوَّةُ إِنَّمَا تُسَمَّى: الْأَيْد فِي لُغَةِ الْعَرَبِ لَا الْيَدُ، فَمَنْ لَا يُفَرِّقُ بَيْنَ الْيَدِ وَالْأَيْدِ فَهُوَ إِلَى التَّعْلِيمِ وَالتَّسْلِيمِ إِلَى الْكَتَاتِيبِ أَحْوَجُ مِنْهُ إِلَى التَّرَأُّسِ وَالمَنَاظَرَةِ»[4].

---

(١) رواه البخاري (٧٤١١).

(٢) الفتح (١٣/ ٤٠٥)، طبعة دار الريان للتراث. **قلتُ**: والألباني ذكر الحديث في السلسة الصحيحة برقم (٣١٣٦)، عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: «**إنَّ أولَ شيءٍ خلقَه اللهُ ﷻ القلمُ، فأخذه بيمينِه، وكِلْتا يدَيه يمينٌ، قال: فكتب الدنيا وما يكون فيها من عملٍ معمولٍ: برٍّ أو فُجورٍ، رطبٍ أو يابسٍ، فأحصاه عنده في الذِّكرِ، ثم قال: اقرأوا إن شئتُم: ﴿هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾؛ فهل تكون النَّسخةُ إلا من أمرٍ قد فُرِغَ منه**».

(٣) الفقه الأكبر، ص٢٣.

(٤) كتاب التوحيد، ص٨٧.

■ وقالَ أبو الحسن الأشعري على قول الله: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾: دَلَّ على أنَّه ليسَ مَعنى الآية القُدرَة إذا كانَ الله ﷻ خَلَقَ الأشياء جميعًا بقُدرَتِه، وإنَّما أرادَ إثبات يَدَين، ولم يُشارِك إبليسُ آدمَ عليه السلام في أنْ خُلِقَ بهما، وليس يَخلو قوله ﷻ: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ أنْ يكونَ معنى ذلك إثباتُ يدين قُدرتَين، أو يكون معناهُ إثباتُ يدين، ليستا نِعمَتين، ولا جَارِحَتين، ولا قُدرَتين، لا يُوصَفان إلَّا كما وَصَفَ اللهُ ﷻ، فلا يجوزُ أنْ يكون معنى ذلك نِعمَتين، لأنَّهُ لا يجوز عِند أهل اللسان أنْ يقولَ القائِلُ: عَمِلتُ بيديَّ، وهو يعني نعمتيَّ، لا يَجوزُ عِندنا، ولا عِند خُصُومِنا أنْ نَعني قُدرتين، وإذا فَسَدَت الأقسام الثَلاثة، صَحَّ القِسمُ الرابع؛ وهو أنَّ مَعنى قوله: «بيدي» إثبات يدين، ليستا جارِحتين، ولا قُدرتين، ولا نِعمتين، لا يُوصفان إلَّا بأنْ يُقال: إنَّهما يَدان ليسَتَا كالأيدي خارِجتانِ عن سَائِر الوجُوه الثلاثة التي سَلَفَت.

■ وقال أيضًا: «فإنْ سُئِلْنا أتقولون: لله يَدَين؟ قيلَ: نَقولُ ذلكَ، وقد دَلَّ عليه قوله تعالى: ﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الفتح:١٠]، وقوله تعالى: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾، ورُوِي عن النبي ﷺ أنه قال: «إنَّ اللهَ مَسَحَ ظَهْرَ آدمَ بِيدِهِ فاستَخرجَ منهُ ذرِّيَّتَهُ»[1] فثبتت اليد.

(١) صحيح سنن أبي داود، حديث رقم (٣٩٣٦). ومالك في الموطأ (كتاب القدر) بلفظ «بيمينه» بدلًا من «بيده».

وقد جاء في الخبر المأثور عن النبي ﷺ: «**أَنَّ اللهَ خَلَقَ آدَمَ بِيَدِهِ، وَخَلَقَ جَنَّةَ عَدنَ بِيَدِهِ، وكَتَبَ التَّوراة وغَرَسَ شَجَرَة طُوبَى بِيَدِهِ**»(١)، وقال ﷻ: ﴿**بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ**﴾ [المائدة:٦٤]، وجاءَ عن النبي ﷺ أنه قال: «**وكِلْتا يَدَيْهِ يَمِينٌ**»(٢)، وقال ﷻ: ﴿**لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ**﴾ [الحاقة:٤٥]، وليس يجوز في لسان العرب، ولا في عَادة أهل الخِطَاب، أنْ يَقولَ القائِل: عَمِلْتُ كذا بيدي ويعني به النعمة... إلخ»(٣).

▪ وقال أيضًا: «سُؤالٌ» ويقالُ لأهل البِدَع: لِمَ زَعمتم أنَّ معنى قوله: «**بِيَدِيَّ**»: نِعمَتي؟! أَوَزَعَمْتُم ذلك إجماعًا أم لُغة؟! فلا يجوز ذلك في الإجماع، ولا في اللُّغة، وإنْ قالوا: قُلنا ذلك من القياس، قِيل لهم: ومِنْ أينَ وَجَدتُّم في القياس أنَّ قول الله: «**بِيَدِيَّ**» لا يكون معناه إلا نِعمتيَّ؟!(٤).

أقول: مِمَّا لا شك فيه أنَّ في رَدِّ «أبي الحسن رَحِمَهُ اللَّهُ» القَوْل الفَصْل، والحُجة البالِغة، على أفرَاخِ الفلاسِفة والزنادِقة، وذِكْرَى لمن كانَ لَهُ قَلْبٌ أو ألقَى السَّمْعَ وهو شَهِيد.

(١)أخرجه ابن سعد في الطبقات الكبرى (٣٦)، وابن أبي الدنيا في صفة الجنة (٤١)، والبيهقي في الأسماء والصفات (٦٩٢).

(٢) رواه مسلم (١٨٢٧).

(٣) الإبانة، ص٣٤. اقرأ البحث إلى نهايته فإنَّه مهم.

(٤) الإبانة، ص٣٥.

[٣] صِفة النزول:

قالَ رسولُ الله ﷺ: «**ينزلُ ربُّنا تبارك وتعالى كلَّ ليلةٍ إلى السماءِ الدنيا حين يبقى ثلثُ الليلِ الآخرُ؛ فيقولُ: من يدعوني فأستجيبَ له؟ مَن يسألني فأعطيَه؟ مَن يستغفِرُني فأغفرَ له؟**»[(١)]، وفي رِواية: «**فيَقولُ: أنا المَلِكُ، أنا المَلِكُ، مَن ذا الذي يَدْعُونِي فأسْتَجِيبَ له؟ مَن ذا الذي يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ؟ مَن ذا الذي يَسْتَغْفِرُنِي فأغْفِرَ له؟ فلا يَزالُ كَذلكَ حتَّى يُضِيءَ الفَجْرُ**»، وكُلُّ مُسلمٍ يؤمن بالله واليوم الآخِر، مِن عَصْرِ النبي ﷺ يقرأ حديث البخاري ومسلم، إلَّا ويقول بقول النبي ﷺ: «**ينزلُ ربُّنا تبارك وتعالى كلَّ ليلةٍ إلى السماءِ الدنيا**»، حتى جاءت نابِتة الكُفر والضلال فقالوا: «إذا قلنا يَنزِل فقد شَبَّهناهُ بالمخلوق ويفرغ منه العرش، والحركة والانتقال مِن صِفات المخلوقات، فتعالى الله عن ذلك عُلوًّا كبيرًا»، فبعضهم نَفى النزول وغيره من الصفات (وهم النُّفاةُ والمعطِّلة).

ومنهم مَن قال: «لا يَنزِل، إنَّما يَنزِل أمره أو رحمته أو المَلَك الموكَّل»، وهؤلاء هم (المؤوِّلَة) قالوا: ظاهِر هذه الصِّفات تَشبِيهٌ، والتَّشبيه كُفْرٌ فيَجِبُ أنْ نَصرِفَها عن ظاهِرها.

---

(١) رواه البخاري (١١٤٥)، ومسلم (٧٥٨). صحيح الجامع (٨١٦٨).

سُبحان الله العظيم! دينُ الإسلام خير أديان السماء على الإطلاق، دينٌ أكمَلَه الله وأتمَّه، ورضِيه دينًا للعالَمين، وخَتَمَ بِه جميع الشرائع السماوية، يكون فيه ما ظَاهره التَّشبِيه والكُفْر، والله جلَّ جلاله وَصَفَه بقوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت:٤١، ٤٢]، سبحانك هذا بُهتانٌ عظيم وإفكٌ مُفتَرى.

محمد رسول الله ﷺ خليل الله وأكرم الخلق على الله، أرسله بالبينات والهدى، ليبين للناس ما نُزِّلَ إليهم، ويخرج مِن الدنيا ويلحق بالرفيق الأعلى، ولم يُبَيِّن لهم ما ظاهره التَّشبِيه والكُفْر، بل يُقِرُّ القائِل بما ظاهره التشبيه والكفر –في زعمهم– وشهد له بالإيمان، ويأتي جَهْمٌ، وواصِلٌ، وغيرهم مِن رُؤوس الكُفر والضَّلال، ليبينوا للناس ما غفل عنه النبي ﷺ، سبحانك هذا بهتان عظيم!

الصحابة –رضوان الله عليهم أجمعين– والذين اتَّبعوهم بإحسانٍ؛ وَصَفَهُم الله في مُحْكَم كتابه بأنهم خير أمةٍ أخرجت للناس، وأَنَّهُ رَضِي عنهم ورضوا عنه، وأعد لهم جنات تجري من تحتها الأنهار، اختارهم الله لصُحبة نبيه ونصرة دينه، ووصفهم النبي ﷺ بأن قَرْنهم خير قرون بني آدم[1]، هؤلاء الفضلاء الذين لا يخشون في الله لومة لائِم، مع التابعين وتابعيهم بإحسانٍ خرجوا من الدنيا، ولم

(١) قال رسول الله ﷺ: «خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم يجيء أقوام تسبق شهادة أحدهم يمينه، ويمينه شهادته» متفق عليه.

يُبَينوا للناس -لا تصريحًا ولا تلميحًا- أنَّ في القرآن ما ظاهره التَّشبِيه والكُفْر، حتى جاءت نابتة الزنادقة والمارقين وفروخ المتكلمة والفلاسفة الملحدين، وتلامذة اليهود، والباطنية الحاقدين، ليبينوا للناس أن في كلام الله وكلام رسوله ﷺ ما ظاهِره التشبيه والكفر -سبحانك هذا بهتان عظيم-، وحَسْب هؤلاء الملحدين رؤوس الكفر والضلال، قول النبي ﷺ: «**تركتُكم على البيضاءِ، ليلِها كنهارِها، لا يزيغُ عنها إلا هالكٌ**»(١).

وقوله في حجة الوداع: «**ألا هلْ بَلَّغْتُ؟ قالوا: نَعَمْ، قالَ: اللَّهُمَّ اشْهَدْ...**»(٢).

ولَعَلَّهُ يَنطبِق على هؤلاء وأشبَاهِهِم قول النبي ﷺ: «**إنَّ الرَجُلَ ليَتَكَلَّمُ بالكلِمَةِ مِن سَخَطِ الله لا يُلقِي لها بالًا؛ يَهوِي بِها سَبعِينَ خَرِيفًا فِي النَّار**»(٣).

(١) رواه أبو داود (٤٦٠٧)، والترمذي (٢٦٧٦)، وابن ماجه (٤٣)، وأحمد (١٧١٤٢)، وصححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة (٩٣٧).

(٢) رواه البخاري (١٧٤١)، ومسلم (١٦٧٩).

(٣) صحيح سنن الترمذي (١٨٨٤)، بلفظ: «إنَّ الرجل ليتكلم بالكلمة لا يرى بها بأسًا، يهوي بها...». انظر: صحيح الجامع الصغير (١٦١٨).

[٤] صِفات الاستهزاء والمكر والكيد والخداع:

مِمَّا لا شك فيه أنَّ صفات الاستِهزاء، والمكر، والكيد، والخداع؛ مذمومةٌ شرعًا، بل في جميع الأديان، وأمَّا الاستِهزاء بالمستَهزِئين، والمكر بالماكِرين، والكَيد بالكائِدين، وخِداع المخادِعين، فهذا أرجو ألَّا يكون به بأسٌ، وقد أثبَتَه القرآن الكريم في أكثر مِن آية، قال تعالى: ﴿ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمۡ إِنَّمَا نَحۡنُ مُسۡتَهۡزِءُونَ ١٤ ٱللَّهُ يَسۡتَهۡزِئُ بِهِمۡ وَيَمُدُّهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ﴾ [البقرة:١٤، ١٥]، وقوله تعالى: ﴿ وَيَمۡكُرُونَ وَيَمۡكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ ﴾ [الأنفال:٣٠]، وقوله سبحانه: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمۡ ﴾ [النساء:١٤٢].

وفي هذه المناسبة، أود أن أذكر قِصَّةً طَرِيفَةً حَصَلَت معي مِن أحد مشايخنا عند تفسير قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَسۡتَهۡزِئُ بِهِمۡ ﴾؛ وهي أنه: جاءني رجلٌ مِن حلب، لا أعرفه سابقًا، وقال لي: «شيخك أشعري»، وكنتُ وقتها حَديثَ عهدٍ بالتصوف لا أعرف شيئًا عن الأشعرية ولا غيرها سِوى «الطريقة الرِّفاعية»[١].

(١) نعم، تصوَّف أبو يوسف رَحِمَهُ ٱللَّهُ أول حياته وبداية الطلب لقرابة خمس سنوات:

مَن ذا الذي ما ساءَ قط * ومَن له الحُسنى فقط

وله مع التصوف وأهله وقائع وأحداث ذات شأن، سأذكر أهمها -إن شاء الله-، ثم إنَّ الله هداه إلى منهج السلف الصالح الذي حدَّده رَحِمَهُ ٱللَّهُ بقوله: «فمنهاج سيرنا الذي نسير عليه هو: قال الله ﷻ، قال رسول الله ﷺ، قال الخلفاء، قالت الصحابة، دوَّنت الأئمة الأعلام، أئمة الحديث والفقه، بسند صحيح دون زيادة فيه أو نقص منه».

فسألتُهُ: ما معنى أشعري؟ فقال: يُؤَوِّلُ الصِّفات، قلتُ: كيف يُؤوِّلها؟ قال: يقول: «استوى: استولى، واليد: القدرة، وجاء ربك: جاء أمره، ويستهزئ بهم: يجازيهم على استهزائهم، وغير ذلك»؛ فخرجتُ مِن عنده مُشَوَّشَ الذِّهن، وبدأتُ أراقِبُ الشيخ باهتمامٍ بالِغ، حتى جاءَ الوقتُ الذي بدأ فيه بتفسير قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمۡ إِنَّمَا نَحۡنُ مُسۡتَهۡزِءُونَ ١٤ ٱللَّهُ يَسۡتَهۡزِئُ بِهِمۡ﴾ مِن أوائِل سورة البقرة، فقال: يا أبنائي قد يأتيكم فَلْس –والفَلْس في لغته الفيلسوف– ويقول لكم: الله يستهزئ؟ فإن قلتم: يستهزئ، فقد كفرتم، وإن قلتم: لا يستهزئ، فقد كذَّبتُم القرآن. إذن فما المَخرَج؟ وأضرِبُ لكم مثلًا: خرج جماعة مِن أهل الثراء إلى النزهة، وأخذوا معهم مُهَرِّجًا ليُضحِكَهم، وفي مَعرض حديثهم قالوا له: ماذا نطبخ لك يا فلان؟[1] قال: اطبخوا لي جُبَّة وقميصًا.

عندها قال الشيخ: الجُبَّة والقميص تُطبخان أو تُنسجان؟ فقلنا: بل تنسجان. فقال: ذلك مثل قول الله: ﴿ٱللَّهُ يَسۡتَهۡزِئُ بِهِمۡ﴾، فعندما خاطبوه بلُغة الطبخ –ومعلومٌ أنَّ الجُبَّة والقميص لا يُطبخان– فخاطبهم بلُغة الطبخ على المُشاكَلة، وكذلك عندما قال المنافقون: ﴿إِنَّمَا نَحۡنُ مُسۡتَهۡزِءُونَ﴾، قال لهم: ﴿ٱللَّهُ يَسۡتَهۡزِئُ بِهِمۡ﴾ على سبيل المُشاكَلة، ومعنى ذلك أنَّه يجازيهم على استهزائهم ولا غير.

---

(١) استدلّوا بقول الشاعر:

قلنا اقترح شيئًا نجِد لك طبخه * * قال اطبخوا لي جُبةً وقميصًا

فاستَغْتُ هذا الكلام ابتداءً، إلَّا أنَّه انتابَني صِراعٌ عَنيف مع نفسي، خاصة عندما أتلو قول الله: ﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ وأتذكر قول الشيخ: «فإن قلتم الله يستهزئ فقد كفرتم»، حتى جاء اليوم الذي أخرجني الله فيه مِن حَومَة الصِّراع العنيف مع نفسي، عندما بدأ الشيخ يُفَسِّرُ قوله تعالى: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾؛ فقال في مَعرض حديثه: «تعالى اللهُ عُلوًّا كبيرًا أنْ يَمكُر، لكنَّه يُجازِي الماكِرين على مَكرِهم يوم القِيامة». عندها أيقَنتُ أنَّ الشيخ قد حَكَمَ على نَفسِه بالكُفر بِناءً على قاعِدته التي عَلَّمَنا إيَّاها: «وإنْ قُلتُم: لا يستهزئ فقد كَذَّبتُم القرآن»، وتكذيبُ القرآن كُفْر.

فهرعتُ مُسرِعًا وَجِلًا، أنشُدُ ضالتي عِند الأخ الحلبي، وأسمَعتُه كلام الشيخ إجمالًا وتفصيلًا، وطلبتُ مِنه المَخرَج، فقال: الاستهزاء، والمكر، والكيد، والخداع؛ مِن الصِّفات الذميمة؛ فالاستهزاء، والمكر، والخداع، والكيد، ابتداءً مذموم شرعًا في حقِّنا، فكيف في حق الله؟! فإطلاقُه على الله بلا قَيدٍ لا يجوز شَرعًا؛ كأن تقول: «الله يستهزئ»، «الله يَمكُر»، «الله يَكِيد» بدون قيد... إلخ، الله يكيد بمَن يكيد، ويخدع مَن يخدع، ولا غير؛ لأنَّ جميع هذه الصِّفات، وردت في كتاب الله مَسبُوقة باستِهزاء المُستهزئين، ومَكْرِ الماكرين، وخِداع المخادِعين... إلخ.

ثم أحضر لي كتاب الله وقال لي: اقرأ مِن هنا، فقرأتُ قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ فأمرني أنْ أقِف، ثم سألني: لماذا قلتَ: اللهُ يستهزئ بهم، مع أن شيخك قال: الذي يقول: الله يستهزئ كفر؟!

فقلتُ له: لأنَّ الله قالها في كتابه، وأمَرَني أنْ أقولها وأنْ أتلوها، فربَّتَ على كتفي وشَجَّعني ودعا لي قائلًا: بل لكَ بكل حَرفٍ عَشْرَ حَسناتٍ(١)، وليس كما قال شيخك: إنَّ الذي يقولها يكفر، لكِنَّنا نقول ما قاله الله في كتابه، ونتلوه آناء الليل وأطراف النهار، وذلك مَحْضُ الإيمان.

ونلتزِمُ القاعدة التي قعَّدها الإمام مالك رَحِمَهُ اللَّهُ، ووافق عليها سلف الأمة «الاستواءُ مَعلومٌ، والكَيفُ مجهولٌ، والإيمان به واجِبٌ، والسُّؤالُ عَنه بِدعة»، وكذلك نقول: «الاستِهزاءُ معلومٌ، والكَيفُ مجهولٌ، والإيمان به وَاجِبٌ، والسُّؤالُ عَنه بِدعة»، وكذلك باقي الصفات، بدون تمثيلٍ، أو تَشبِيهٍ، أو تحريفٍ، أو تَعطيلٍ، أو نَفي، أو تَأويل، مع ذِكر القَيد السَّالِف الذِكْر، في هذه الصِّفات الأربع وأمثالها؛ فنقول: «يستهزئ بمَن يستهزئ، ويَمكُر بمَن يَمكُر، ويَخدع مَن يَخدع، ويَكِيد بمَن يَكِيد». والله تعالى أعلم، وهو المستعان، وعليه التكلان، وهو مولانا فنعم المولى ونعم النصير، فخرجتُ مِن عنده شاكرًا، وداعيًا له بالتوفيق، ومنذ ذلك الحين عَرَفتُ طريقي، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

(١) لقوله ﷺ: «**مَنْ قرأَ حرفًا من كتابِ اللهِ فله به حسنةٌ، والحسنةُ بعشرِ أمثالِها، لا أقولُ: (الم) حرفٌ، ولكنْ ألِفٌ حرفٌ، ولامٌ حرفٌ، وميمٌ حرفٌ**»، رواه الترمذي (٢٩١٠)، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير (٦٤٦٩).

رابعًا: الواقفة:

هُم القائِلون: «الآياتُ والأحاديثُ التي تَتَعلَّقُ بالصِّفات؛ يَجِبُ عدم الخَوضِ في شيءٍ مِنها، ويَجِبُ الإيمان بجمِيعها، والكَفُّ عَنْ مَعرِفَة مَعانِيها؛ لأنَّها مِن المُتشابِه الذي لا يُعلَمُ تَأويله إلَّا اللهُ ﷻ».

فنقولُ لهؤلاء: لو كانت تلك الصِّفات مِن المتشابه الذي لا يعلمه إلَّا الله؛ لَمَا تَجَرَّأ أحدٌ مِن المسلمين أنْ يَحومَ حول الحِمى، ولَمَا قالت أم المؤمنين أم سلمة والإمام مالك وغيرهما: «الاستواءُ معلومٌ وغير مجهول»، ولا مخالف لهما فيما قالا، ولَمَا قال ابن بَطَّال وأقرَّهُ الحافظ ابن حجر: «وأما تفسير (استوى): عَلا، فهو صحيح، وهو المذهب الحق، وقول أهل السُّنة»، ولَمَا قال مجاهد فيما روى عنه البخاري: «استوى: عَلا على العرش»، ولكن السلف أجمعين فهموا مِن آيات الصفات وأحاديثها:

أولًا: أنَّ معاني هذه الصِّفات مَعلومةٌ لديهم تمامًا؛ ولِذلِك قالوا: «الاستواء معلوم».

ثانيًا: وأمَّا الكيف فمِن المجهول وغير المعقول عندهم، ومِن المتشابِه الذي اختصَّ الله بعلمه.

وقول أم سلمة والإمام مالك لَشاهِدٌ حَيٌّ على صِدق ما قلناه؛ حيث قالا: «الاستواء معلوم وغير مجهول، والكيف مجهول وغير معقول، والإقرار به إيمان والجحود به كفر». وفي هذا الكفاية، والله تعالى أعلم.

خامسًا: المفوِّضة[1]:

هُم القائِلون: «نحنُ نؤمِنُ بجميع الصِّفاتِ، ونُثبِتُها على ظاهِرها دون تأويلٍ، ونَكِلُ المعنى إلى الله ﷻ؛ لأنَّهُ مِن الجائِز أن يكون لها ظاهِرًا مُرادًا ولائِقًا بالله، ويجوز أنْ يكون غير مُراد، وغير لائِقٍ به سبحانه وتعالى، فنحن نتوقف، عن تحديد المعنى المراد، ونُفَوِّضُ أمره إلى الله جلَّ وعَلا».

فنقولُ لهؤلاء: بأنَّ السَّلف الصَّالِح -رضوان الله عليهم أجمعين- جَزَموا بأنَّ ظَواهِرها، والمتبادر للذهن مِنها هو المراد؛ لأنَّ الله تعالى اختار هذا اللفظ لذاتِه، فوَصَفَ به نفسه، وفَهِموا معاني جميع الصِّفات، وجزموا بذلك؛ فقالوا: الاستواء معلوم، وقالوا: معناه العُلو، وأعرَضَوا عن الكيف. وفي هذا كفاية، والله تعالى أعلم.

(١) «التفويض عند السلف في باب الصفات؛ هو الكيفيَّة فقط، فلا يعلم كنه الصفات إلا الله؛ لذلك يفوضون علم الكيفية للخالق سبحانه. وأما التفويض عند الخلف (الأشاعرة وغيرهم) في اللفظ والمعنى؛ إذ يعتقدون أنَّ ظاهر الصفة غير مراد، ويلزم من هذا أنَّ آيات الصفات من المتشابِه، ومن ثم لم يعلم ذلك رسول الله ﷺ ولا صحابته -رضوان الله عليهم أجمعين-، وهذا منكر من القول وزورًا». انظر: حاشية شرح السنة للبربهاري، ص٣٧، تحقيق د. القحطاني.

سادسًا: السلف الصالح:

إنّ مَذهبَ السَّلَف (أهلُ السُّنَّةِ والجماعة): محمد ﷺ، وخلفائه، وصحابته، والتابعين، وتابعي التابعين، والذين اتبعوهم بإحسانٍ؛ هو المذهب الوسط بين المذاهب الأخرى، لا إفراط فيه ولا تفريط، فَهُم يؤمنون بجميع ما ورد في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ من صفات الله تعالى، ويُثبِتون جميع ما أثبته الله لنفسه في كتابه، وما أثبته له رسوله ﷺ، وهي صِفات كمالٍ و جَلالٍ، مُراعِين فيما أثبتوه تنزِيهَ الخالِق عن مُشابَهة الخَلْق، مع فَهْمٍ تامٍّ لمعاني تلك الصِّفات على اختلافها، ومُراعين في ذلك قواعد اللغة والشرع، وجميعهم أعرَضَ عن ذِكْرِ الكيفيات، وأمسكوا تمامًا عن التَّعرُّض لمعرفة حقائِقِها، وعدُّوها مِن المتشابِه الذي خَصَّ الله به نفسه سبحانه، وكلهم قال: «الاستواء معلوم وغير مجهول»، وفسَّرُوه بالعُلو، فأمسكوا عن الكَيف؛ فقالوا: «والكيف غير معقول والكيف مجهول».

فلذلك قيل: «السلف -رضوان الله عليهم- لا يُمَثِّلون، ولا يُشَبِّهون، ولا يُكيِّفون، ولا يُؤَوِّلون التأويل الذي لا يتفق مع قواعد اللغة والدِّين، ولا يَستنِد إلى محتمل مرجوح، ولا إلى دليل يَدل عليه، وكُلهم قال -وعلى رأسهم النبي ﷺ-: «الرحمنُ على العرش استوى، وإنَّه في السماء، ويَنزِلُ ربنا كل ليلة إلى سماء الدنيا، ويَضحك، ويَعجب، ويَرضى، ويَغضب، ويَفرح، ويَسخط، ويَأتي، ويُعطِي، ويَهَب» وغير ذلك، وكانوا يفهمون معنى الاستواء، والنزول، والمجيء،

والضحك، والتعجب، والرضى، والغضب، والسخط،... إلخ، بلا كَيفٍ، ولا تَشبِيهٍ، ولا تَمثِيلٍ، ولا تَعطيلٍ، وبِلا تَأويلٍ مُخِلٍّ بالمعنى المُراد، وعلى ضَوء قوله سبحانه: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١]. والحمدُ لله الذي بنعمته تَتِم الصالحات.

مقارنة بين قول السلف والخلف

❖ أولا: قَوْلُ السّلَف:

(١) **استوى**: عَلا.

(٢) **اليد**: صِفَةٌ بِلا كَيف.

(٣) **يَنزِلُ ربنا**: نُزولًا يَلِيقُ بِه، بِلا كَيف، ونَقول بِقول النبيِّ ﷺ: يَنزِلُ ربنا، ويَضحك، ويَعْجَب، ويَسْخَط، ويَأتِي، ويُحِب، ويَغْضَب، ويَفْرَح.

ومعنى هذه الصفات مَعلومٌ فِي لُغة العَرَب، نُثبِتُها جَميعًا بِلا كَيف، ولا تَشبِيه، ولا تَمْثِيل، ولا تَعطيل، ولا نَفْي، على ضَوء قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾، فقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ نَرُدُّ بِها على المُشَبِّهة والمعطِّلة، وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ نَرُدُّ بها على النُّفاة.

❖ ثانيا: قَوْلُ الخَلَف:

(١)**الاستِواء**: الاستِيلاء - استَوى: استَولى.

(٢)**اليد**: القُدرة والنِّعمَة.

(٣)**النُّزُول**: نُزُولُ الأمْرِ والرَّحمَة، أو المَلَك المُوَكَّل.

ويقولون إنَّ ظواهِرَ هذِهِ الصِّفات لا يَليقُ بالله؛ لأنَّ ظاهِرها التَّشبِيه بصِفات المخلوقين، ومَن شَبَّه الله بخلقِه فَقَد كَفَرَ، لذلك يَجِبُ صَرْفُ ألفاظِها على ظاهِرها؛ لأنَّ ظاهِرها غير مُراد، ولا يَلِيق بالله؛ فاليد، والوجه، والنفس، والعين، كل هذه جوارِح، والجارِحة لا تَقوم إلا بِجِسْمٍ فيكونُ مَحلًّا للحوادِث، تعالى الله عن ذلك عُلوًّا كبيرًا، فنحن نَنفِيها تنزيهًا لربنا عن التَّشبِيه.

فقل لي بربك أخي المسلم: أيُّهما أليَقُ بالله؛ استوى بمعنى عَلا، أم استوى بمعنى استولى؟! مع العِلم أنَّه سَبَقَ أنْ أثبَتنا أنَّه ليسَ مِن مَعاني استوى استولى.

ويَلزَمُهُم أنْ يَقولوا عن قوله تعالى: ﴿وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّ﴾ [هود:٤٤]: استَولَت على الجُودِي، وهذا لا يَقولُ بِه عاقِل، واستولى عليه استِيلاءً، لا يكون إلا بعد مُغالَبَة، فمن غَالَب اللهَ على عَرشِه حتى استولى عليه مِنه؟! سُبحانك هذا بهتان عظيم.

وأيُّهما أَلْيَقُ بالله؛ إثباتُ يَدَيْن ليسَتا بجارِحتين، ولا قُدْرَتَين، ولا نِعمَتَين، لائِقَتَين بالله، ليس كمِثلِهما شَيء، وكِلتا يَديه يَمين، أم قَوْلُ الذين قالوا: لا يَدَ له، وإنَّما يَدُهُ قُدرَتُهُ أو نِعمَتُه؟! مَع العِلْم أنَّ النُّفَاة نَفَوا عنه القُدرَة، وقالوا: قادِرٌ بِلا قُدرة، والسَّلَف والمؤوِّلة مُتفِقون أنَّ اللهَ له قُدرَة واحِدة، فكيفَ يُؤوِّلُون قوله تعالى: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ [المائدة:٦٤]، وقول النبي ﷺ: «**وبيَدِهِ الْأُخْرَى الميزانُ، وكِلتَا يَدَيهِ يَمِين...**»(١)، هَل يَقُولُونَ: «يَدَاهُ مَبسُوطَتَان»، قُدْرَتَاهُ أو نِعمَتَاهُ مَبسُوطَتان، وكِلتَا قُدرَتَيه أو نِعمَتَيه يَمِين، وبِقُدرَتِه أو نِعمَتِه الأخرى الميزان، ولكن رَحِمَ اللهُ الإمام أبا حنيفة رَحِمَهُ اللَّهُ إذ يقول: «وَلهُ يَدٌ، وَوَجْهٌ، وَنَفس، فَمَا ذكره الله تَعَالَى فِي الْقُرْآن مِن ذِكرِ الْوَجْه، وَالْيَد، وَالنَّفس؛ فَهُوَ لَهُ صِفَات بِلَا كَيفَ، وَلَا يُقَال: إِنَّ يَدهُ قدرته أوْ نعْمَته؛ لِأَنَّ فِيهِ إبطَال الصِّفة، وَهُوَ قَول أهل الْقدَر والاعتزال، وَلَكِن يَده صفته بِلَا كَيفَ». ونحن نقول بقول الإمام رَحِمَهُ اللَّهُ: إنَّ الذِي يَقولُ: يَدَهُ قُدرَتَهُ أو نِعمَتَه؛ فقد أبْطَلَ صِفَةً مِنْ صِفاتِ الله، وإنَّهُ قَدَرِي مُعتَزلِي.

وأيُّهما أَلْيَقُ بالله؛ القولُ بقول النبي ﷺ: «**ينزلُ اللهُ كلَّ ليلةٍ إلى السماءِ الدُّنيا؛ فيقولُ: هل مِن سائلٍ فأُعطِيَه؟ هل مِن مُستغفرٍ فأغفرَ له؟ هل مِن تائبٍ فأتوبَ عليه؟ حتى يطلعَ الفجرُ**»(٢)، أمْ الذين قالوا: لا يَنزِلُ ربنا، وإنَّما يَنزِلُ أمْرُهُ أو رَحمَتُه أو المَلَك المُوَكَّل -خلافًا لقول النبي ﷺ-؟!

(١) أخرجه البخاري (٤٦٨٤)، ومسلم (٩٩٣)، والترمذي (٣٠٤٥).

(٢) رواه البخاري (٦٣٢١)، ومسلم (٧٥٨)، صحيح الجامع الصغير (٨١٦٧).

فنقولُ: مَن القائِل: «مَنْ يَسألُنِي فأعطِيَهُ؟...»: أمْرُهُ أم رَحمَتُهُ أم المَلَكُ المُوَكَّل؟! ومَن ذا الذي يُعطِي؟! ومَن ذا الذي يَستَجيب؟! ومَن ذا الذي يَغفِر سِوى الله سبحانه؟!

وأيُّهما أَلْيَق بِكَ أخي المسلم؛ أنْ تَقول بقول الله: ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ﴾: استِواءً يَلِيقُ بِجلالِه وكَمَالِه، بِلا كَيفٍ ولا تَشبِيهٍ، وتَقول بِقولِ رَسول الله ﷺ: «ينزلُ اللهُ كلَّ ليلةٍ إلى السماءِ الدُّنيا...» نُزولًا يَلِيق بجلالِه وكمالِه، بِلا كَيفٍ ولا تَشبِيهٍ، وتَقولُ بِقولِ السَّلَف، وتَقول بقول ربنا: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ﴾، ﴿بَلۡ يَدَاهُ مَبۡسُوطَتَانِ ﴾، ﴿لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّ ﴾، وبقول رسولنا ﷺ: يَنزِلُ ربُنا تبارك وتعالى، ويَضحَكُ، ويَعْجَبُ، ويَسْخَطُ، ويَأتِي، ويُحِبُّ، ويَغْضَبُ، ويَفْرَحُ، بِلا كَيفٍ، ولا تَشبِيهٍ، ولا تَمثِيلٍ، ولا تَعطِيلٍ، ولا تَأوِيلٍ، على ضَوءِ قوله تعالى: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ﴾، أمْ القَولُ بقولِ الخَلَف: الرحمن على العرش استولى، ليس له يدان، ويداه قُدرتاه ونِعمتاه، لما خلقت بيدي: بقدرتي، ونعمتي، ولا يَنزِلُ رَبنا كل ليلة؛ لأنَّهُ إنْ نزَلَ خَلا مِنهُ العرش، وإنَّما يَنزِل أمره أو رحمته أو المَلَك المَوكَّل، ونَفوا عنه باقي الصِّفات؟!

[وقد أُثِرَ عن الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ النَّهي عن الاشتغال بِعِلْم الكَلام، وحَذَّر مِن أهل][1] الكلام، وحكم عليهم أنْ يُضرَبوا بالجريد والنِّعال، ويُطَافُ بِهم في الأسواق[2]، مع عِلمِكَ أنَّ السَّلَف والخَلَف مُتَّفِقون جميعًا، أنَّ مَذهب السَّلَف أسْلَم، وأزيدُ فأقول: وأعلمُ وأحكَم إرغامًا لأنُوف القائِلين: «ومذهبُ الخَلَف أعلَمُ وأحكَم» كَبُرَت كَلمةً تَخرُجُ مِن أفواهِهم، إنْ يقولون إلا كذبًا مبينًا وزورًا، ومَن ذا الذي يَدَّعِي أنَّه أعلَم وأحْكَم مِن النبي ﷺ، وخُلَفائِه، وصَحابَتِه، والتَّابِعين لهم بإحسانٍ، والذين أبى الله أنْ يَجمَعَهُم على ضَلالة، ولكن الحقيقة كل الحقيقة كما قال الله تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج:٤٦] فحذار -حذار- أخي المسلم أنْ تَتَجَنَّبَ سَبيلهم، وتَبتَعِدَ عن هَديِهم، فالخيرُ كُله في اتِّباعِ مَن سَلف، والشَّر كله في ابتداع مِن خَلَف. والله الهادي إلى الصواب.

(١) ما بين المعكوفتينِ كلامٌ أضفناهُ ليستقيم السياق، وقد ذهل عنه إما المؤلف أو الناسخ، عسى أن يُستَدركَ لاحقًا.

(٢) شرح العقيدة الطحاوية، ص٢١٠؛ حيث جاء: «حكمي في أهل الكلام أن يضربوا بالجريد والنعال، ويطاف بهم في القبائل والعشائر، ويقال: هذا جزاء من ترك الكتاب والسنة، وأقبل على الكلام» اهـ.

شبهات والرد عليها (التأويل)

لعلَّ سائِلًا يَسأَلُ: (كثيرًا ما وَرَدت في كتب المتقدمين مِن أهل السُّنَّة عبارة «السَّلَف لا يُؤوِّلون» فلماذا أوَّل مُجاهِد، وأبو العالِية الاستواء بالعُلو، وأوَّل علماء السَّلف المعية، بمعية النَّصر والتأييد، وتجري بأعيننا: تجري برعايتنا وكلاءَتِنا؟!). فأقولُ وبالله التوفيق:

أمَّا قَولُ: «السَّلَف لا يُؤوِّلون»؛ فهذا الإطلاق غير صحيح، وإنما هو صحيحٌ مِن ناحِية، وغير صحيحٍ مِن ناحية أخرى، فهو ليس على إطلاقه؛ لأنَّ التَّأويل عند أهل اللغة والأصوليين يُطلَق على إطلاقات أربعة:

(١) **التفسير والتبيان**: فهذا النوعُ مِن التَّأويل قال به السَّلَف وعملوا به مستدلين بقول النبي ﷺ ودُعائِه لابن عباس: «**اللَّهمَّ فقِّهْهُ في الدِّينِ وعلِّمْه التأويلَ**»[(١)].

وأبرز دليل يدل على ذلك؛ ما رواه البخاري عن مجاهد قوله: «استوى: عَلا على العرش»، ويشهد لهذا قول أم سلمة والإمام مالك: «الاستواء معلوم وغير مجهول».

(١) صحيح رواه أحمد (٥/ ٤١) كما قاله الألباني في شرح الطحاوية، ص١٨٠.

ويؤكده ما نقله الحافظ ابن حجر عن ابن بَطَّال: «وأما تفسير (استوى: عَلا) فهو صحيح، وهو المذهب الحق، وقول أهل السُّنَّة؛ لأنَّ الله سبحانه وَصَفَ نَفسه بالعَلِي؛ فقال سبحانه: ﴿تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ [النحل:٣] وهي صفة من صفات الذات».

والناقِل عنهم ابن حجر -مع كونه مُؤَوِّلًا، ويميل للتأويل- لم يُنكِر عليهم مقالتهم(١).

(٢) **صَرْفُ اللفظِ عَن ظاهِرِهِ المُتَبادَر مِنه إلى مُحتمل مرجوح**: فيكون راجِحًا، إمَّا مِن مفهوم اللفظ ومنطوقه، أو لقرينة خارجية عقلية، أو نقلية، بدليل (شَرعي أو عقلي) يدل على ذلك؛ فهذا النوع مِن التَّأويل قال به السَّلَف أيضًا وعَمِلوا به، فمثلًا قوله تعالى: ﴿فَإِنَّكَ بِأَعۡيُنِنَا﴾ [الطور:٤٨] قال أهل التفسير: «بمَرأى منا، ومَنظر منا، نرى ونسمع ما تقول وتحت كلاءَتِنا».

وكذلك قوله تعالى: ﴿تَجۡرِي بِأَعۡيُنِنَا﴾ [القمر:١٤]، قال ابن كثير، والقرطبي وغيرهما: «تجري بمرأى منا، وتحت حِفظنا وكلاءَتِنا»، فكانوا بمثل هذه النصوص يصرفون اللفظ عن ظاهِره؛ لتعذُّر الحقيقة؛ وهو: سير السفينة (في عين الله)؛ بدليل قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱرۡكَبُواْ فِيهَا بِسۡمِ ٱللَّهِ مَجۡرٖىٰهَا وَمُرۡسَىٰهَآۚ إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾

(١) انظر فتح الباري، مجلد (١٣)، كتاب التوحيد وشرحه له.

﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ﴾ [هود:٤١، ٤٢]؛ فتعيَّن علينا التَّأويل، وإلى يومنا هذا لا نعلمُ أحدًا أنكَرَ على أهل التفسير تأويلهم هذا أبدًا؛ لأنَّ الدليل العقلي والنقلي يؤيد هذا التأويل، والله تعالى أعلم.

وكذلك أوَّلوا المعية، إلَّا أنَّ المعية تَمتاز عن غيرِها مِن الصِّفات، بأنَّ الآية نَفسها تُحدد المعنى المراد مِن المعيَّة، فقد تكون مَعيَّة عِلم وإحاطة، أو مَعيَّة نَصْر وتَأييد، أو مَعيَّة حِفظ وكَلاءة؛ كقوله تعالى مثلًا: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [المجادلة:٧]؛ فبدأ سبحانه الآية بالعِلم وخَتمها بالعِلم؛ فتَبيَّن مِن مَنطوق الآية، ومَفهومِها، أنَّها مَعية عِلم لا مَعيَّة ذات.

وكذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه:٤٦]؛ فالآية حددت معنى المعيَّة، بأنَّها مَعيَّة اطِّلاع عليها، وأنَّه مُطَّلِعٌ على فِرعون، وعلى تحركاتِه، وعَلى كُل مكائِده، وكذلك قوله تعالى: ﴿قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾﴾ [الشعراء:٦٢] معية هداية وتوفيق، وعلاوة على ذلك فإنَّ هذا النوع من التَّأويل مفهومٌ عِند العَرب مِن لغتهم، حتى عِند عَرَب القَرن العِشرين، وكثيرًا ما نَسمع إذاعتهم، وصحفهم، تُكرِر القول: «نحن مع هيئة الأمم في قراراتها»، «نحن معكم يا أحرار

العرب»، «نحن معكم في كل مكان»، هذا ما كان يكرره صوت العرب، في زمن عبدالناصر، وحتمًا كانوا معهم بالنَّصر والتأييد، والله تعالى أعلم.

(٣) **الحقيقة التي يَؤُوَّل إليها**: مثل قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَايَ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّٗا﴾ [يوسف:١٠٠]، فيوسف رأى أحد عشر كوكبًا والشمس والقمر رآهم ساجدين، فالأحد عشر كوكبًا إخوته، والشمس والقمر أبوه وامرأة أبيه، ولم يكن يَعلم هذا إلا بإعلام الله له. وقوله تعالى: ﴿بَلۡ كَذَّبُواْ بِمَا لَمۡ يُحِيطُواْ بِعِلۡمِهِۦ وَلَمَّا يَأۡتِهِمۡ تَأۡوِيلُهُۥ﴾ [يونس:٣٩]. وكقوله سبحانه: ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأۡوِيلَهُۥۚ يَوۡمَ يَأۡتِي تَأۡوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبۡلُ﴾ [الأعراف:٥٣]، وكقوله سبحانه: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۖ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [آل عمران:٧]؛ فهذه الحقيقة التي عبر عنها السلف، بـ(الكيف) لا يعرف حقيقتها أحد، لا السَّلَف ولا الخَلَف، ولا يعلمها إلا الله وَحدَه سبحانه؛ ولذلك فإنَّ السَّلَف أعرَضوا عنها بالكلية، ولم يَتعرضوا لها سلبًا ولا إيجابًا؛ بل كلهم قال: «والكيف غير معقول، والكيف مجهول».

(٤) **هو صَرْفُ اللفظ عن ظاهره**: بلا محتمل مرجوح ولا دليل يدل عليه؛ مثل تأويل الرافضة لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تَذۡبَحُواْ بَقَرَةٗ﴾ [البقرة:٦٧]؛ حيث قالوا: عائشة بنت أبي بكر رضي الله عنهما -عليهم لعائِنُ الله-.

فالخِطاب عن موسى لبني إسرائيل؛ فأين المرجوح المحتمل؟! وأين الدليل الذي يدل على صحة قولهم؟!

وكذلك قولهم في قوله تعالى: ﴿بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ﴾: أبو بكر وعمر رضي الله عنهما، ولكن حسبهم قول النبي ﷺ: «لَعَنَ اللهُ مَنْ سَبَّ أصحَابِي»(١)، وقوله ﷺ: «مَنْ سَبَّ أصحَابِي؛ فَعَليه لَعنَةُ اللهِ والملائِكَةِ والنَّاسِ أجمعين»(٢).

وكتفسير ابن عربي لقول الله تعالى: ﴿أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ [غافر:٤٦] شَهِدَ له -أي لفرعون- بالإيمان، وفَسَّر العذاب بالعُذوبة، ونحو ذلك من الأقوال والتأويلات التي لا تَستَنِدُ إلى لُغَةٍ، أو شَرعٍ، أو عَقلٍ، ولا إلى محتمل مرجوح، فهذه أيضًا كان السَّلَف أبعد النَّاس عنها، وكانوا يَرمُون قائِلها بالزندقة والضلال والابتداع.

فالسَّلف إذًا يُؤوِّلون التأويل الذي هو بمعنى التفسير؛ ولذا قال ابن تيمية: «وأمَّا الاستِواء؛ فلم يَرِد إلَّا على العَرشِ فقط، ومِن مَعانِيه العُلو، وهو المراد؛ لأنَّ الله يُوصَفُ بالعُلو والفَوقِية، ولا يُوصَفُ بالسُفُول والتَّحتِية قَط»(٣).

(١) رواه الطبراني في المعجم الأوسط (٧/ ١١٤)، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير (٥١١١).

(٢) رواه الذهبي في ميزان الاعتدال (٣/ ١٦٢)، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير (٦٢٥٨).

(٣) مجموع الفتاوى (٥/ ٣٩١).

وقد أكثَرنا مِن النُّقول التي تُثبت ذلك -ولله الحمد والـمِنَّة-، ويُؤَوِّلون القِسم الثاني الذي قال بِه الأصوليون؛ وهو: صَرْفُ اللفظ عن ظاهِره لمحتمل مرجوح... إلخ، كالمعيَّة والأعيُن، كما مَرَّ بيانُه، ويُعرِضون بالكلية عن القِسمَين الثالِث والرابع إعراضًا تامًا، ويَرمُون القائِلين بِهما بأنَّهم ضُلَّال مُبتدعون.

وقد قال قائِلون مِن المعتزلة، والجهمية، والْـحَرُورِية: «إنَّ قولَ الله ﷻ: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ إنَّه استَولى وقَهَرَ ومَلَكَ، وإنَّ الله في كُل مَكانٍ، وجَحَدوا أن يَكون ﷻ على عَرشِه كما قَالَ أهلُ الْـحَق، وذَهبُوا فِي الاستِواءِ إلى القُدرَةِ، ولَو كانَ هَذا كَمَا ذَكَروا كَانَ لا فَرقَ بَينَ العَرشِ والأرضِ»[1].

ولعلَّ سائِلًا آخر يسأل: (إذا كانَ قد ثَبَتَ عن السَّلَف «التَّأويل»؛ فلِماذا نَعِيبُ على الخَلَف تَأوِيلهم؟!)؛ فأقول وبالله التوفيق:

قد ثَبَتَ فِعلًا التأويل عَن السَّلَف، ولكِنَّهُ تَأوِيلٌ غَيرُ خارِجٍ عَن قواعِد اللغة والشَّرع، ولا مخالف للعقل، وكل تأويلهم يَدور في حَلَقة الإثبات والتَّنزِيه، وأمَّا تأوِيل الخَلَف فيَدُورُ حَول النفي والتعطيل فِرارًا مِن تَشبِيه الله بالمخلوقين، وهو مخالف للعقل والنقل، ولا ينطبق مع قواعد اللغة والشرع.

(١) الإبانة، ص١٢٠.

فمثلًا الاستِواء أوَّلوهُ بالاستيلاء، والثابِتُ في لغة العَرَب أنَّ الاستِيلاء ليس معنى للاستواء ألْبَتة، ويَلزمهم أنْ يَقولوا في سفينة نوح بأنَّها استولت على الجبل، وهذا مُحالٌ عَقلًا وشَرعًا.

وتأمَّلْ ماذا قال أهل اللغة؛ نقل «الحافظ ابن حجر» عن كتاب أبي إسماعيل الهروي، بسنده إلى دَاود بن عَلِي؛ قال: «كنا عند أبي عبدالله ابن الأعرابي يعني محمد بن زياد اللغوي؛ فقال له رجل: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ هو على العرش كما أخبر، قال: يا أبا عبدالله إنَّما معناه استولى؛ فقال: اسكت، لا يقال: استولى على الشيء إلا أنْ يكون له مضاد».

ونقل مِن طريق محمد بن أحمد بن النضر الأزدي، سمعت ابن الأعرابي: «أرادَني أحمد بن أبي داود أنْ أجِدَ له في لُغة العَرَب ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ بمعنى استولى، فقلت: والله ما أَصَبت هذا».

وقال غيره: «لو كان بمعنى استولى لَمْ يَختص بالعرش؛ لأنَّه غالِبٌ على جميع المخلوقات».

ونَقل مُحيي السُّنَّة البَغَوي في تفسيره عن ابن عباس: «وأكثرُ المفسِّرين أنَّ مَعناه ارتَفع، وقال أبو عبيد، والفرَّاء وغيرهما بنحوه» انتهى[1].

(١) فتح الباري (١٣/ ٤١٧).

فإذا كان الأمرُ كذلك، وليسَ فِي لُغَتِنا مَعنى الاستواء بالاستيلاء، وليسَ لله مَنْ يُضَادُّه في مُلْكِه، فكيف نَترك أقوال السَّلَف العَرَب الأقحاح، ونَلجَأ إلى مولد نصراني أخطل، فمثل هذا لا يليق بعربي، ولا بمُسلِمٍ يؤمن بالله واليوم الآخر! والله أعلم.

وإليك مثلًا آخر: النزول؛ فالنبي ﷺ قال: «**يَنزِلُ رَبُّنا كُلَّ لَيلَةٍ إلى السَّماءِ الدُّنيا**»(١) والخُلفاءُ مِن بعده قالوها، وكذلك الصحابة، والتابعون، وتابعوهم، وإلى يومنها هذا، وكل مسلم يقرأ البخاري ومسلم وغيرهما، يقول: «**يَنزِلُ رَبُّنا كُلَّ لَيلَةٍ**...»، وهم يقولون: لا يَنزِل، تعالى الله عن ذلك عُلوًّا كبيرًا، رغم وجودها في الصِّحاحِ والمسانيد، وقالوا: إذا نَزَلَ خَلا مِنه العَرش، وهذا مُحالٌ على الله، إذًا لا بُدَّ مِن القول بأنَّه يَنزِلُ أمره، أو رحمته، أو المَلَك المُوَكَّل!

فإذا كان الله لَمْ يَنزِل، فَمَن الذي يقولُ: أنا المَلِك، ومَن يدعوني فأستجيب له؟ ومَن يسألُنِي فأُعطِيه...؟! هل هو الأمر، أم الرحمة، أم المَلَك؟! أفتونا مأجورين!

وإليك مثلًا آخر: اليد؛ فاللهُ تعالى قال: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة:٦٤].

وقال سبحانه: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾.

(١) رواه البخاري (١١٤٥)، ومسلم (٧٥٨)، صحيح الجامع الصغير (٨١٦٨).

وقال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر:٦٧] والرسولُ ﷺ قال: «يَأْخُذُ الله ﷻ سَمَاوَاتِهِ وَأَرَضِيهِ بيَدَيْهِ؛ فيَقولُ: أَنَا اللهُ...»(١).

وفي رواية: «ثمَّ يأخذُهُنَّ بيدِهِ اليُمنى»(٢)، «يَدُ الله مَلْأَى لا يَغِيضُها نَفَقَةٌ، سَحّاءُ اللَّيْلَ والنَّهارَ، وقالَ: أَرَأَيْتُمْ ما أَنْفَقَ مُنْذُ خَلَقَ السَّماواتِ والأَرْضَ، فإنَّه لَمْ يَغِضْ ما في يَدِهِ، وكان عَرْشُهُ علَى الماءِ، وبِيَدِهِ الأُخْرَى المِيزانُ، يَخْفِضُ ويَرْفَعُ»(٣)، «تَكُونُ الأَرْضُ يَومَ القِيامَةِ خُبْزَةً واحِدَةً، يَكْفَؤُها الجَبَّارُ بيَدِهِ، كما يَكْفَأُ أَحَدُكُمْ خُبْزَتَهُ في السَّفَرِ، نُزُلًا لأَهْلِ الجَنَّةِ»(٤)، «كِلْتا يَدَيْهِ يَمِينٌ»(٥).

وهم يقولون: «لا يَد له» أنَّ اليَد جارِحَة، والجارِحَة لا تقوم إلا بجِسم، والجِسم مِن صِفات المخلوقين، فيجِبُ أنْ نقول: يَدُهُ قُدرَتُهُ أو نِعمَتُهُ، فهذا القَولُ: «اليَدُ جارِحَةٌ... إلخ» لَمْ يَقُل بِه النبي ﷺ، ولا الخلفاء، ولا الصحابة، ولا الأئمة، ومِمَّا لا شَك فِيه أنَّ هذا مِن إحداثِ الزَّنادِقة، والنبي ﷺ نَهَى عن مُحدَثاتِ الأُمُور،

(١) رواه مسلم (٢٧٨٨).

(٢) المصدر السابق.

(٣) رواه البخاري (٤٦٨٤)، ومسلم (٩٩٣).

(٤) رواه البخاري (٦٥٢٠)، ومسلم (٢٧٩٢)، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير (٢٩٨٨).

(٥) رواه مسلم (١٨٢٧).

وهذا القَولُ قَد جَرَّهَم إلى نَفي اليَد عَن اللهِ تعالى، مع كونِها ذُكِرَت في الكِتاب والسُّنَّة. كذلك جَزم الإمامُ أبو حنيفة وغيره مِن الأئِمَّة بأنَّ القائِل: «اليَد القُدرَة» قد نَفَى الصِّفَة؛ حيث قال رَحِمَهُ اللَّهُ: «ولا يُقالُ: إنَّ يَدهُ قُدرتهُ أو نِعمَته؛ لأنَّ فيهِ إبطال الصِّفة»(١).

وجَزَمَ بذلك ابنُ القيِّم في مُختَصر الصَّواعِق: «فِي بَيَانِ أَنَّ التَّأْوِيلَ شَرٌّ مِنَ التَّعْطِيلِ، فَإِنَّهُ يَتَضَمَّنُ التَّشْبِيهَ وَالتَّعْطِيلَ وَالتَّلَاعُبَ بِالنُّصُوصِ، وَإِسَاءَةَ الظَّنِّ بِهَا، وَنِسْبَةَ قَائِلِهَا إِلَى التَّكَلُّمِ بِمَا ظَاهِرُهُ الضَّلَالُ وَالْإِضْلَالُ»(٢).

وما قالَه الإمامُ أبو حنيفة حَقٌّ كُله: «فقولهم: (اليد جارحة) قطعًا فيه تَشبِيهُ يَدِ الله بالمخلوق. وقولهم: (يَدُهُ قُدرَتُه) نَفيٌ لليَدِ، ونَفيُ اليد فيه التَّعطِيل... إلخ».

فالفَرقُ بين تأويل السَّلَف والخَلَف، كالفرق بين الحق والباطل، والْهُدى والضَّلال، **فتأويل السَّلف** مُوافِقٌ لقواعِد اللغة والشَّرع والعَقل، ويقومُ على قواعِد الإثبات والتَّنزِيه، مِن غير تشبيه ولا تمثيل، ومن غير نفي ولا تعطيل.

وأمَّا الخَلَفُ فتأوِيلهم لا يَستَنِدُ إلى كِتاب، أو سُنَّة، أو لُغة، أو شَرع، أو عَقل، بَلْ يَقوم على قواعِد النَّفي، والتَّعطيل، وزبالة آراء الفلاسِفة، والزَّنادِقة،

(١) الفقه الأكبر، ص٢٣.

(٢) مختصر الصواعق المرسلة (٤٩/ ١١).

وعُلماء الكلام، وخالفوا بذلك الصحابة والتابِعين وكتاب ربِّ العالمين وسُنَّة سَيد المرسلين، وحَسبُهم ذلك، وفي ذلك ما يكفي في الرَّدِّ على هَؤلاء، وآخِر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

تمَّت «رِسالةُ التَّوحِيد»

بقلم

الشيخ/ عَبْدِ الرَّحمنِ بْنِ يُوسُفَ عَبْدِ الصَّمَدِ

رَحِمَهُ اللهُ ووالِديهِ ومشايخه والمسلمين

في مسك الختام

(١) المؤلف في سطور:

* هو الشيخ أبو يوسف، عبدالرحمن بن يوسف بن محمود بن حسين بن علي بن عبدالصمد.

* وُلِدَ عام (١٣٤٥هـ-١٩٢٧م) في عَنَبْتَا بفِلسطين.

* وقد تَلقى العِلمَ الشَّرعِي على طريقة الأولين، مِن جهابِذة عُلماء السَّلَف المُعاصِرين؛ مِن أمثال أصحاب الفضيلة:

الشيخ ناصر الدين الألباني، والشيخ عبدالعزيز بن عبدالله بن باز، والشيخ محمد نسيب الرفاعي -رحمهم الله أجمعين-[١].

---

(١) ويحسُن بنا التأسِّي بأم المؤمنين عائشة رضي الله عنها؛ فإنَّها كانت تتمثل بعد موت النبي ﷺ بقول لبيد:

ذَهَبَ الذين يُعاشُ في أكنافهِم * * وبَقِيتُ في خلف كجلد الأجربِ

لا ينفعونَ ولا يُرجى خيرُهم * * ويُعابُ قائِلهم وإن لم يشغبِ

إنَّ الرزيَّة لا رزيَّة مثلها * * فقدان كل أخ كضوء الكوكبِ

ثم تقول رضي الله عنها: كيف لو رأى لبيد خَلَفنا هذا؟! ويقول الشعبي رحمه الله: كيف لو رأت أم المؤمنين خلفنا هذا؟!

قلتُ: كيف لو رأت خلفنا هذا اليوم وما قبله؟! ونعوذ بالله وحده مما بعده! فإنا لله وإنا إليه راجعون.

* ومما قاله الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ فيه:

«أخونا أبو يوسف رَحِمَهُ اللَّهُ مِن أَنْبَغِ الإخوان -أي: السلفيين- هُناك، وأحرَصِهِم على العِلم الصَّحِيح، وأنا أُشهِدُ اللهَ عَزَّوَجَلَّ أنَّه مِن أخلص مَن رأيتُ مِن إخواننا»(١).

* وكانت وفاتُه في أستراليا، ليلة الخميس السَّاعة السَّابِعة والنِّصف، في يوم (١٧) شوال عام (١٤٠٨هـ)، الموافق (٢) حُزَيران/ يونيو عام (١٩٨٨م)؛ وذلك على أثَرِ حادِث سيارةٍ مؤلِم، عِندما كان خارِجًا للدَّعوة إلى الله في تلك البِلاد، حَيثُ وُجِّهَت له دعوةٌ مِن الجمعية الإسلامية مِن (مِلبورن - أستراليا) عن طريق جمعية إحياء التراث الإسلامي في الكويت، وقد دُفِنَ في أستراليا في إحدى مقابر المسلمين هناك تطبيقًا للسُّنَّة. أسكَنَهُ الله الفِردوس الأعلى، وكَتَبَ وفاته شَهادةً في سبيله، إنَّهُ خَيرُ مَسؤول، وجعله الله بفضله مِن أهل هذه الآية: ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء:١٠٠]، وجعله سبحانه أيضًا مِن أهل هذا الحديث: «**إنَّ الرَّجلَ إذا ماتَ بغيرِ مولدِهِ قيسَ لَه من مولدِهِ إلى منقطَعِ أثرِهِ في الجنَّةِ**»(٢).

إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون، اللَّهم آجرنا في مصيبتنا، وأخلِف لنا خيرًا مِنها.

---

(١) من شريط سلسلة الهدى والنور (١/ ١٧٣).

(٢) صحيح الجامع الصغير، حديث رقم (١٦١٢).

اللهم ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان، ولا تجعل في قلوبنا غِلًا للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم.

(٢) وله هذا الموقف مع التصوف:

الشيخُ رَحِمَهُ اللَّهُ ابتدأ التصوف وَفْقًا للطَّرِيقة الرِّفاعِية التي يُنسَبُ لشيخِها أحمد الرفاعِي، هذه الأبيات:

لِي هِمَّـةٌ بَعضُها تَعلُو عَلى الهِمَمِ ❊❊ ولِي هوًى قَبْلَ خَلْقِ اللوحِ والقَلَمِ
أنا الرِّفَاعِيُّ طُبُولي في السَّما ضَرَبَتْ ❊❊ والأرضُ قَبضَتِي والأولِيا خَدَمِي
فَالْـجَأ بِأعَتَابِ عِزِّي والتَمِسْ مَدَدِي ❊❊ وَطُفْ بِبَابِي وَقِفْ مُستَمطِرًا نِعَمِي[1]

هذا ويروِّجُ الأتباع لقصة؛ وهي أنَّ الرِفاعِي لما زَارَ قَبْرَ النبي ﷺ، قال هذين البيتين:

في حالة البُعدِ رُوحِي كُنتُ أُرسِلُها ❊❊ تُقَبِّـلُ الأرضَ عَنِّي وَهْـيَ نَائِبتي
وها هِي دَولَةُ الأرواحِ قَد حَضَرَتْ ❊❊ فامدُدْ يَدَيكَ لِكَي تَحظَى بِها شَفَتِي

وعلى الفور أخرَجَ النبيُّ ﷺ يَدَهُ الشريفة من قبره الشريف ليُقَبِّلَها أمامَ الألوف مِن الناس!

(١) انظر: «الكشف عن حقيقة التصوف» لمحمود عبدالرؤوف قاسم، ص٥١٢.

قلتُ: ومِن طرائِف تعلِيقاتِه عليها، قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: «هذه الكرامَة البَاهِرة، لَمْ يروها من هذه الألوف المؤلَّفة راوٍ واحد بِسَنَدٍ صَحيح أو سَنَدٍ ضَعيف، بل ولا بِسَنَدٍ واهٍ أو مَوضُوع، بل النَّاسُ يَتَداولُونَها ويَعتقِدُونَها بِلا زِمامٍ ولا خطامٍ، فقط كلام في كلام في كلام!».

والطَّرِيقة الرِّفاعِية لها صِلَةٌ قوية بالتَّشيُّع؛ حيثُ قالوا: «جفرنا محمدي، ترقيمه فاطمي، تقريره جعفري، تسطيره كاظمي، ترميزه رفاعي؛ نحن عصبة لولانا ما عُرِفَ الله»!

ومِن قواعِد التَّصَوف قولهم: «ما أفلح مُرِيدٌ قال لشيخه: لِمَ؟»، «ولا تعترض تنطرد؛ يُغلق عليك الباب»، «وكن بين يدي الشيخ كالميت بين يدي مُغَسِّلِه»! وما على المريد إلا الالتزام والاعتصام بهذا.

لكنَّ أبا يُوسُفَ رَحِمَهُ اللَّهُ لَمْ يَمُتْ –كما أَرَادوا–، بَل بَقِي حَيًّا ذا بَصِيرةٍ ثَاقِبة، كانت –بعد توفيق الله– سببًا لِهدايتِه، وخاصَّة مِن بعد هذه القصة كما رَوَاها رَحِمَهُ اللَّهُ: «كان عمي –والد خطيبتي– مُرِيدًا لأحد مشايخ الطُّرُق في (حلب)، وكان يُنشِدُ في مجلِسه الأناشيد الصوفية، وكان مُحِبًّا جدًّا للمشايخ، وغالبًا ما يدعوهم إلى وليمة في بيته، فصادف يومًا أن دعا بعض المشايخ يُقارِبُ عددهم سبعة أو ثمانية، فقال أحدهم في معرض حديثه: في يومٍ مِن الأيام كان سيدنا الباز (عبدالقادر) في حلقة ذِكر، وكل شيءٍ في الحلقة يقول: «الله، الله، الله... إلخ» إلَّا

الباز (عبدالقادر) يقول: «أنا الله، أنا الله...»، فعندما انتهت الحلقة، قال له الحاضرون: يا مولانا، لقد سمعناك تقول: «أنا الله، أنا الله... »، فقال لهم: إذا سمعتموني مرةً أخرى أقولها، فاضربوني بالسيف. وفي حَلقة أخرى للذِّكر، عَادَ ثانِيةً يقولها بصوت عالٍ: «أنا الله، أنا الله، أنا الله...»، فسَلَّ الجميع سُيُوفهم، وضَرَبوه ضَربَةَ رَجُلٍ وَاحِدٍ؛ فإذا بِهِ نُورٌ زَادَ السيوفَ لمعانًا، فقالوا: يا مولانا! لقد عُدتَ تقول (أي أنا الله) فضربناكَ، فَلَمْ تتأثر مِن السيوف، ولَمْ تُؤَثِّر بِكَ السيوف؛ فقال: «استروا علي ما شُفْتُم»، فاستأذنتُ -أي: أبا يُوسف صاحب القصة- بالكلام فأذِنَ لي، فقلتُ له: أسألك بالذي لا تقوم السماوات والأرض إلَّا بِه؛ عبدالقادر الجيلاني أكرمُ على الله مِن النبي ﷺ؟، فقال: لا. أم أكرمُ على الله مِن أبي بكر، مِن عمر، مِن عثمان، مِن علي -رضوان الله عليهم أجمعين-؟ قال: لا. أم أكرمُ على الله مِن الصحابة، والأئمة الأربعة -رضوان الله عليهم أجمعين-؟ قال: لا. فقلتُ له: بِرَبِّ العِباد أسألُك: هل مِن أحدٍ مِن هؤلاء قال ولو مرَّةً واحدة في صحوِهِ أو مَحوِه: «أنا الله»؟! فما كان منه إلَّا أنْ بادَرَني وبسرعة فائقة: «أنتَ وهَّابِي، ضَال مُضِل تُنكِرُ كرامات الأولياء » اهـ.

وصلَّى اللهُ وسَلَّم وبَارَكَ عَلى مُحمدٍ وعلى آلِهِ وصَحبِهِ أجمعين، ومَنْ تَبِعَهم بإحسانٍ إلى يوم الدِّين، والحمد لله ربِّ العالمين.

انتهيتُ -بفضل الله وَحْدَه ومَنِّه- مِن مراجعة «رِسالة التوحيد» والتعليق عليها، سائلًا المولى سبحانه بأسمائه الحسنى وصفاته العلى أنْ يُحسِن خِتامي وخِتام ذريتي وأقاربي وأحبابي حيثما كانوا، وأنْ يُدخِلنا الفردوس الأعلى بسلام يا رَحْمان.

وسبحانك اللهم وبحمدِك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك.

في يوم «الثلاثاء»، الثالث مِن صَفَر الخير، لعام (١٤٢٥هـ).

أبو عبدالرحمن

إِبْرَاهِيمُ بْنُ حُمَيْدٍ السَّاجِرِ

غَفَرَ اللهُ لَهُ ولِوالِديهِ ولمشايخه وللمسلِمين

المحتويات

الموضوع	الصفحة
إهداء	٥
توطئة بين يدي الرسالة	٦
مقدمة المؤلف	١٤
التوحيد	١٩
مدلوله اللغوي	١٩
أصل التوحيد	١٩
أقسام التوحيد	١٩
أولاً: توحيد الألوهية	٢١
قوام هذا التوحيد	٢٢
العبادة	٢٢
الإخلاص وتعريفه	٢٢
كماله وإتمامه	٢٥
تحقيقه	٢٥

أنواع العبادات ٢٦
العبادات القلبية ٢٦
العبادات العملية ٢٦
العبادات القولية ٢٧
العبادات المالية ٢٧
ثانيًا: توحيد الربوبية المتضمن لتوحيد الحُكم ٢٩
تعريفه ٣٠
حقيقته ٣٠
التلازُم بين توحيد الألوهية والربوبية ٣١
ثالثًا: توحيد الأسماء والصفات ٣٣
مقاصد هذا التوحيد ٣٤
بعض المذاهب والفرق ٣٧
أولاً: المُشَبِّهة والمُجَسِّمة ٣٧
ثانيًا: النُّفاة والـمُعَطِّلة ٣٨
ثالثًا: المُؤوِّلة مِن الخَلَف ٥٣
صفات كثر فيها النزاع ٥٧

الاستواء ٥٨

اليد ٦٣

النزول ٦٧

الاستهزاء والمكر والكيد والخداع ٦٩

رابعًا: الواقفة ٧٤

خامسًا: المفوِّضة ٧٦

سادسًا: السلف الصالح ٧٧

مقارنة بين قول السلف والخلف ٧٩

قول السلف ٧٩

قول الخلف ٨٠

شبهات والرد عليها (التأويل) ٨٤

التفسير والتبيان ٨٤

صرف اللفظ عن ظاهره المتبادر منه إلى محتمل مرجوح ٨٥

الحقيقة التي يؤول إليها ٨٧

صرف اللفظ عن ظاهره بلا محتمل مرجوح ولا الدليل يدل عليه ٨٧

المؤلف في سطور ٩٥

وله هذا الموقف مع التصوف ٩٧

المحتويات ١٠١